الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف

كلية العلوم الانسانية والاجتماعية

قسم: العلوم الإنسانية

شعبة: علوم الإعلام والاتصال

مطبوعة بيداغوجية ضمن مقرر إثنوغرافيا الجمهور والمستخدمين

موجهة لطلبة ماستر 2 تخصص الاتصال الجماهيري والوسائط الجديدة

من إعداد الدكتورة: سلطاني فضيلة

المجلس العلمي

رئيس المجلس العلمي
لكلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية
أ.د: مصطفى مغزاوي

السنة الجامعية: 2021/ 2022

محتوى المادة:

المحور الأول: مدخل عام للدراسات الأنثربولوجية والإثنوغرافية

- الأنثروبولوجيا
- الاثنولوجيا
- الاثنوغرافيا
- الاثنو-ميتودولوجية

المحور الثاني: التوجه الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية

- تطور المقترب الإثنوغرافي في دراسات الاتصال
- المقترب الإثنوغرافي ومستخدمي الوسائط الجديدة
- ملاءمة الدراسات الإثنوغرافية لأبحاث الجمهور والمستخدمين

المحور الثالث: طرق وأدوات البحث الإثنوغرافي

- الملاحظة بالمشاركة
- المقابلة (الموجهة وغير الموجهة)
- طريقة الاختبارات النفسية
- طريقة تحليل الوثائق
- الطريقة التصويرية"الفوتوغرافية" (الصور الثابتة)
- الطريقة السينماتوغرافيا (الصور المتحركة، أو التصوير السينمائي)
- الطريقة الفونوغرافية
- الطريقة الفيلولوجية
- الطريقة السوسيولوجية

المحور الرابع:اثنوغرافيا الجمهور والمستخدمين

* استخدام المنهج الإثنوغرافي لدى دافيد مورلي
* اثنوغرافية جمهور التلفزيون
* اثنوغرافية مستخدمي الانترنت

المحور الخامس: الإثنوغرافيا على الخط وإشكالاتها المنهجية

* المجتمعات الافتراضية وخصوصيتها
* الإشكالات المنهجية للإثنوغرافيا على الخط
* طرق تخطي الإشكالات المنهجية

مدخل عام للدراسات الأنثربولوجية والإثنوغرافية

- الأنثروبولوجيا

- الاثنولوجيا

- الاثنوغرافيا

-الاثنو-ميتودولوجية

تمهيد:

قبل الخوض في البحث عن الاثنوغرافيا سواء من ناحية أصل المصطلح أو البحث في المعنى الحقيقي من وراء الكلمة كان لزاما علينا أن نتطرق للمفاهيم المشابهة أو التي قد يقع الفرد موقع التباس منها ألا وهي اتباعا الانثروبولوجيا والاثنولوجيا والإثنو-ميتودولوجيا وفي هذا نجد الباحث "كلود لفي ستروس" Claud Levis Stross يضع لنا بعض الأساسيات والتي من شأنها أن تسهل علينا التمييز بين هذه المفاهيم حيث يطابقها بثلاث مستويات للبحث، إذ تشكل مع بعضها حقلا متكاملا غير مستقلة بذاتها ، بل هي مستويات في البحث وسنحاول في هذا المحور توضيح كل مفهوم على حدا قصد التوصل لرأي واضح حول هذه المفاهيم وبالتالي إزالة اللبس حولها:

أولا: الأنثروبولوجيا (علم الانسان): Anthropologie

1- مفهوم الأنثروبولوجيا:

إن لفظ " أنثروبولوجيا" Anthropologie هي كلمة إنجليزية مشتقة من الأصل اليوناني المكون من مقطعين: **أنثربوس Anthropos** ومعناه " الانسان" و **لوجوس Locos** ومعناه " علم" ، وبذلك يصبح معنى " الأنثوبولوجيا" من حيث اللفظ " علم الانسان" أي العلم الذي يدرس الانسان[1].

- يعرف " **تايلور**" الأنثروبولوجيا بأنها " الدراسة البيوثقافية المقارنة للانسان" [2]بحيث يحاول الكشف عن العلاقة بين المظاهر البيولوجية الموروثة للانسان والتنشئة الاجتماعية التي يخضع لها أو بمعنى أعم تأثير المحيط.

ومن مجمل ما جمعناه من تعريفات الانثروبولوجيا ما يلي:

---

[1] عيسى الشماس. **مدخل إلى علم الانسان (الأنثربولوجيا)**. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2004، ص 12

[2] المرجع نفسه، ص 14

– هي " الدراسة المتكاملة للانسان بما تحويه من جوانب سيكولوجية وبيولوجية وفسيولوجية وثقافية واجتماعية".

– يعرفها الأمريكيون بأنها " وصف الخصائص الانسانية البيولوجية والثقافية للنوع البشري عبر الزمن".

– المفهوم الخلدوني للأنثروبولوجيا: يعرفها ابن خلدون على أنها " فهم طبيعة تمون العمران البشري وتطوره من الطبيعة الأصلية إلى الطبيعة المستحدثة" وبكلمة مختصرة يمكن القول بأن علم الأنثروبولوجيا يدرس الانسان كصانع للثقافة.

تعرف الأنثروبولوجيا أيضا بأنها " علم دراسة الانسان طبيعيا واجتماعيا وحضاريا، أي: أن الأنثروبولوجيا لا تدرس الانسان ككائن وحيد بذاته، أو منعزل عن أبناء جنسه، إنما تدرسه بوصفه كائنا اجتماعيا بطبعه يحيا في مجتمع معين له ميزاته الخاصة في مكان وزمان معينين."

أي أن الأنثروبولوجيا بوصفها دراسة الانسان في أبعاده المختلفة، البيوفيزيائية والاجتماعية والثقافية، فهي علم شامل يجمع بين ميادين ومجالات متباينة ومختلفة ، مثل علم التشريح، وتاريخ تطور الجنس البشري، والجماعات العرقية وعلوم دراسة النظم الاجتماعية من سياسية واقتصادية ودينية وقانونية وما إليها.

2–طبيعة الأنثروبولوجيا

إن الشعوب الناطقة باللغة الانجليزية جميعها تطلق على علم " الأنثروبولوجيا" "علم الانسان وأعماله" بينما يطلق المصطلح ذاته في البلدان الأوروبية غير الناطقة بالانجليزية على أنها " دراسة الخصائص الجسمية للانسان" ويصل هذا الاختلاف إلى طبيعة علم الأنثروبولوجيا، فبينما يعني في أوروبا " الأنثروبولوجية الفيزيقية"، يستخدم الأمركيون الأنثروبولوجيا الثقافية، في حين البريطانيون يطلقون عليها الأنثروبولوجيا الاجتماعية.

أي أن " علم الأنثروبولوجيا" على الرغم من اختلاف التوجهات في تعريفه، إلا أن الأهتمام المحوري يركز على عنصر أساسي ألا وهو الانسان.

ففي بريطانيا ذات التراث العريض في الدراسات الأنثروبولوجية برزت الأنثروبولوجية الاجتماعية في ظل التأثيرات القوية للنظرية الوظيفية ، وفي هذا يقول جرينبرج في مقال "مجال الأنثروبولوجيا" المنشور في الموسوعة الدولية للعلوم الاجتماعية :" تتأثر الانثروبولوجية الاجتماعية بالنزعة الوظيفية الاجتماعية عند راد كليف براون وأتباعه" وقد ميزوا بدقة بين علم يهتم بدراسة البناء الاجتماعي والوظيف الاجتماعية هو الانثروبولوجيا الاجتماعية وفرع آخر يدرس الثقافة دراسة وصفية ذات اتجاه تاريخي هو الانثروبولوجيا الثقافية [1]

[1] محمد الجوهري، علياء شكري. **مقدمة في دراسة الانثروبولوجيا**، القاهرة، (د.د.ن)، 2007، ص ص 23-24.

3-موضوعات الأنثروبولوجيا

تتناول الأنثروبولوجيا مجموعة من الموضوعات ذات العلاقة بحياة الانسان، إلاّ أنها تتباين في مستوياتها وأولوياتها من باحث إلى آخر. حيث يرى " هاربرت سبنسر" أن موضوع الأنثروبولوجيا هو دراسة التطور، ويتعلق هذا المصطلح بدراسة وتقفي أثر تطور حياة الانسان من حالة الجماعة البسيطة إلى المجتمعات الكبيرة.

وقد حاول " محمد الجوهري" (1999) أن يبلور موضوعات الأنثروبولوجيا عندما ناقش الإشكاليات التي تعمل على بحثها، فالأنثروبولوجيا بالنسبة له تناقش علم الانسان كعضو في المملكة الحيوانية من ناحية وسلوكه كعضو في المجتمع الانساني والهدف من ذلك بيان المعايير الفيزيقية التي تميز الجنس البشري عن سائر الكائنات الحية الأخرى، والتباينات التي طرأت على الجماعات الانسانية المختلفة التي قطنت مناطق معينة سواء المنقرضة منها أو التي مازالت موجودة وهذا يقود إلى البحث في الحضارات التي ظهرت في هذه الجماعات الانسانية وتأثيرها على النظم الاجتماعية المختلفة وبالأساس على نمط الحياة الذي ساد في زمن ومكان معينين وهو بذلك يدرج موضوع الثقافة ضمن علم الأنثروبولوجيا.

ويدخل في إطار الثقافة اللغة التي تستخدمها الجماعات الانسانية المختلفة في التعبير عن حاجاتها والتواصل فيما بينها، على اعتبار أن اللغة هي أحد الأوعية الحاملة للثقافة والمعبرة عن نمط الحياة الاجتماعية السائدة داخل الجماعة وكذلك داخل المجتمع العام.

أما بالنسبة للباحث " محمد حسن عامري" فإنه يرى أن موضوع علم الأنثروبولوجيا هو دراسة الانسان سواء في الأزمنة القديمة أو المعاصرة، وذلك بالتركيز على بحث ودراسة طرق حياة الناس الذين كانوا يعيشون في الماضي وكذلك طرق حياة الناس في الزمن المعاصر. وعليه يعتبر علم دراسة الانسان(الأنثروبولوجيا) علما متطورا يدرس الانسان وسلوكه وأعماله. [1]

وبالتالي يمكن تحديد موضوعات الأنثروبولوجيا في ثلاث نقاط:

-دراسة الانسان الأول.

-دراسة اللغة.

-دراسة التراث والتقاليد والعادات.

[1] أبو هلال أحمد. **مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية**، المطابع التعاونية، عمان، 1974، ص 9.

رابعا: أهداف دراسة الأنثروبولوجيا

استنادا إلى مفهوم الأنثروبولوجيا وطبيعتها وتحديد موضوعاتها، فإن دراستها تحقق مجموعة من الأهداف يمكن حصرها في العناصر الآتية:

-وصف مظاهر الحياة البشرية والحضارية وصفا دقيقا، وذلك عن طريق معايشة الباحث المجموعة أو الجماعة المدروسة وتسجيل كل ما يقوم به أفرادها من سلوكيات أثناء تعاملهم في حياتهم اليومية.

-تصنيف مظاهر الحياة البشرية والحضارية بعد دراستها دراسة واقعية، وذلك للوصول إلى أنماط إنسانية عامة في سياق الترتيب التطوري الحضاري العام للإنسان: بدائي، زراعي، صناعي، معرفي وتكنولوجي.

-تحديد أصول التغير الذي يحدث للإنسان وأسباب هذا التغير وعملياته بدقة علمية، وذلك بالرجوع إلى التراث الإنساني وربطه بالحاضر من خلال المقارنة، وإيجاد عناصر التغيير المختلفة.

-استنتاج المؤشرات والتوقعات لاتجاه التغير المحتمل في الظواهر الانسانية والحضارية التي تتم دراستها، وتصور إمكانية التنبؤ بمستقبل الجماعة البشرية التي أجريت عليها الدراسة.[1]

خامسا: أقسام الأنثروبولوجيا

تنقسم الأنثروبولوجيا إلى أربعة أقسام رئيسية هي:

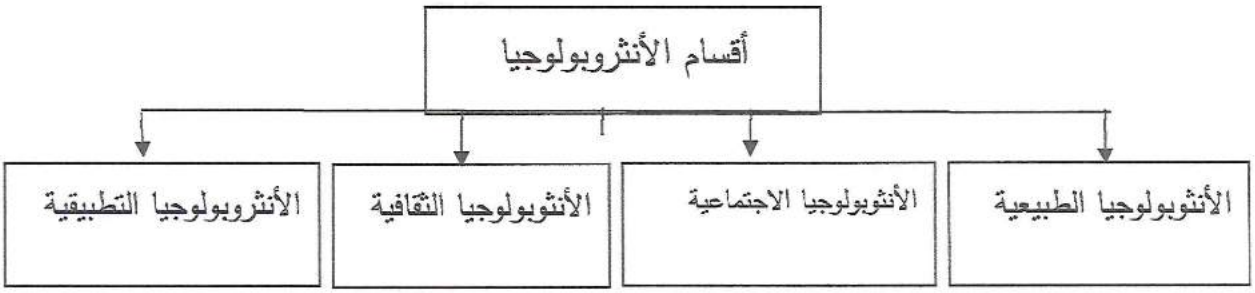

الشكل رقم (1) يبين أقسام الانثروبولوجيا

1-الأنثروبولوجيا الطبيعية: ينتمي هذا القسم إلى طائفة العلوم الطبيعية، يتناول دراسة ظهور الانسان على الأرض كسلالة متميزة واكتسابه صفات خاصة كالسير منتصبا، والقدرة على استعمال اليدين، والقدرة على الكلام، ثم تدرس تطوره حياتيا وانتشاره على الأرض، كما تدرس السلالات البشرية القديمة وصفاتها والعناصر البشرية المعاصرة وصفاتها وأوصافها الجسمية المختلفةوتوزيع تلك العناصر على قارات الأرض وتضع مقاييس

[1] لينتون رالف. **دراسة الانسان**، ترجمة: عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964، ص 15

وضوابط لتلك العناصر كطول القامة أو قصرها، لون الشعر وكثافته، لون العينين وشكلها ولون البشرة، إلى جانب دراستها للوراثة وانتقال ميزات الجنس البشري من جيل لآخر.وقد استطاع هذا العلم أن يجيب عن العديد من التساؤلات التي كانت موضع اهتمام الإنسان وتفكيره منذ القدم وحتى العصر الحديث.[1]

2-الأنثروبولوجيا الاجتماعية: تولى الأنثروبولوجيا الاجتماعية اهتماما ملحوظا بالبناء الاجتماعي الذي تقوم بتحليله في المجتمعات الانسانية خاصة تلك البدائية والبسيطة التي يظهر فيها تكامل ووحدة البناء الاجتماعي بوضوح، وبدأ الأنثروبولوجيون منذ الحرب العالمية الثانية في دراسة المجتمعات الريفية والحضرية في الدول النامية والمتقدمة، فكانوا يدرسون البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية والنظم الاجتماعية مثل: العائلة والعشيرة والقرابة والزواج والطوائف الاجتماعية والنظم السياسية والنظم الاقتصادية وغيرها. وقد مرت العلاقة بين العلمين بعدة أطوار علاقات وثيقة ثم تباعد في الموضوع والمنهج، ونلاحظ اليوم محاولات التقاء جديدة وجادة ، ويرجع **بوتومور** في كتابه "تمهيد في علم الاجتماع" الاختلاف بينهما أخيرا إلى اختلاف موضوعات الدراسة[2].

3-الأنثروبولوجيا الحضارية (الثقافية): تدرس الثقافة من جوانبها المختلفة، حيث تركز على العادات والتقاليد والمعتقدات وكذلك مخترعات الشعوب البدائية وأدواتها وأجهزتها وأسلحتها وطرز المساكن وأنواع الألبسة ووسائل الزينة والفنون والآداب والقصص والخرافات، أي كافة إنتاج الشعب البدائي المادي والروحي، كما تركز على الاتصال الحضاري بين الشعب والشعوب الأخرى والتطور الحضاري والتغير الاجتماعي. وتركز الأنثروبولوجيا الثقافية على جانبين:

أ/ الدراسة المتزامنة: أي الآنية، بمعنى دراسة الثقافة في نقطة معينة من تاريخها، وتنظر هنا إلى العناصر الثقافية من حيث ارتباطها مع حياة المجتمع ككل.

ب/ الدراسة التتبعية أو التاريخية: أي دراسة الثقافة عبر التاريخ ، ويقوم الباحث هنا بعزل الظاهرة أو العنصر ويتتبعها في سيرها التاريخي.

4-الأنثروبولوجيا التطبيقية: حين اتصل الأوروبيون –عن طريق التجارة والتنصير والاستعمار– بالشعوب البدائية نشأت الحاجة إلى فهم هذه الشعوب بقدر ما تقتضيه مصلحة الأوروبيين في الحكم الشعوب واستغلالها، وترتب على ذلك نشأة فرع جديد من الأنثروبولوجيا يدرس مشاكل الاتصال بتلك الشعوب البدائية ومعضلات إدارتها وتصريف شؤونها ووجوه تحسينها ويدعى هذا الفرع " الأنثروبولوجيا التطبيقية" ويعد هذا الفرع الأداة الرئيسية لتطبيق نتائج بحوث كل فروع الأنثروبولوجيا.[3]

---

[1] محمد رياض. الانسان دراسة في النوع والحضارة، دار النهضة العربية، القاهرة، 1974، ص 12.
[2] محمد الجوهري، علياء شكري. مرجع سابق، ص 30.
[3] محمد عبد محجوب، الأنثروبولوجيا التطبيقية"مقدمات نظرية وخبرات حقلية"، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2013.

خامسا: نشأة علم الأنثروبولوجيا [1]

ركز علم الأنثروبولوجيا في بدايته منذ القرن التاسع عشر الميلادي على دراسة الانسان وأسلافه الأوائل وأصوله منذ أقدم فترات التاريخ ، وما قبل التاريخ وفي كل بقاع العالم، وذلك من خلال الحفريات والآثار ولهذا انصبت اهتماماته على دراسة المجتمعات البدائية ، ويرى بعض الأنثروبولوجيين أن ما يميز هذا العلم عن العلوم الأخرى، كعلم الاجتماع والاقتصاد والسياسة والتاريخ وعلم النفس هو تركيزه على المجتمعات البشرية البدائية ، غير أن هذا الرأي لم يعد مقبولا في الوقت الراهن حيث توسع مجال الدراسة وشمل المجتمعات غير البدائية كالقروية والبدو والرحل والمجتمعات المتمدنة كالمجتمع الأمريكي والروسي والصيني....وشمل أيضا دراسة عمليات الاندماج بين الحضارات، ومن هنا رأى الأنثروبولوجيون أن الزمان والمكان لا يقيدان الموضوعات التي تدخل في نطاق علم الأنثروبولوجيا ، إذ يدرس الانسان وأجداده وأصوله منذ أقدم العصور وحتى الوقت الحاضر، ويدرس الانسان في كل مكان، وهكذا لا يتقيد هذا العلم بحدود الزمان والنكان ولكنه يتقيد فقط بالانسان كموضوع للدراسة.

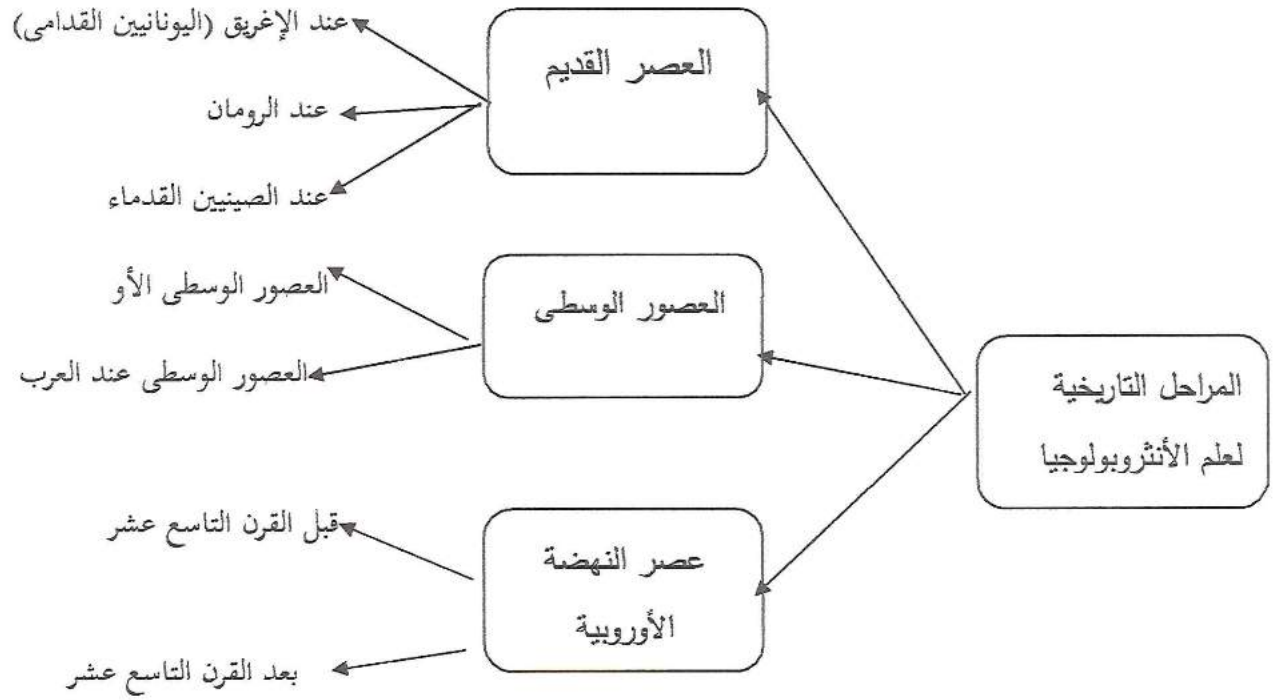

الشكل رقم (2) يبين المراحل التاريخية لعلم الأنثروبولوجيا

1-العصر القديم:

يجمع معظم علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على أن الرحلة التي قام بها المصريون القدامى عام 1493 قبل الميلاد إلى بلاد بونت (الصومال حاليا) بهدف التبادل التجاري تعد من أقدم الرحلات التاريخية في التعارف بين

[1] عيسى الشماس. مرجع سابق، ص من 19إلى 29 (بتصرف).

الشعوب، وقد كانت الرحلة مؤلفة من خمسة مراكب، على متن كل منها 31 راكبا وذلك بهدف تسويق بضائعهم التي شملت البخور والعطور ونتج عن هذه الرحلة اتصال المصريين القدماء بأقزام إفريقيا، وتأكيدا لإقامة علاقات معهم فيما بعد، فقد صورت النقوش في معبد الدير البحري، استقبال ملك وملكة بلاد بونت لمبعوث مصري.

أ/ عند الإغريق (اليونانيين القدامى):

يعد المؤرخ الإغريقي (اليوناني) هيرودوتس Herodotus الذي عاش في القرن الخامس قبل الميداد، وكان رحالة محبا للأسفار أول من صور الشعوب وعاداتهم وطرح فكرة وجود تنوع وفوارق فيما بينها من حيث النواحي السلالية والثقافية واللغوية والدينية ولذلك يعتبره معظم مؤرخي الأنثروبولوجيا الباحث الأنثروبولوجي الأول في التاريخ.

فهو أول من قام بجمع معلومات وصفية دقيقة عن عدد كبير من الشعوب غير الأوروبية (حوالي خمسين شعبا) حيث تناول بالتفصيل تقاليدهم وعاداتهم وملامحهم الجسمية وأصولهم السلالية، إضافة إلى أنه قدم وصفا دقيقا لمصر وأحوالها وشعبها، وهو قائل العبارة الشهيرة: مصر هبة النيل.

واستنادا إلى هذه الاسهامات المبكرة والجادّة يعتقد الكثيرون من علماء الأنثروبولوجيا أن منهج هيرودوتس في وصف ثقافات الشعوب وحياتهم وبعض نظمهم الاجتماعية ينطوي على بعض أساسيات المنهج الإثنوغرافي المتعارف عليه في العصر الحاضر.

وكذلك نجد أن أرسطو كان من الأوائل الذين وضعوا بعض أولويات الفكر التطوري للكائنات الحية، وذلك من خلال ملاحظاته وتأملاته في التركيبات البيولوجية وتطورها في الحيوان....كما ينسب إليه أيضا توجيه الفكر نحو وصف نشأة الحكومات وتحليل أشكالها وأفضلها، الأمر الذي يعتبر مساهمة مبدئية وهامة في دراسة النظم الاجتماعية والانسانية.

ب/ عند الرومان:

امتد عصر الامبراطورية الرومانية حوالي ستة قرون، تابع خلالها الرومان ما طرحه اليونانيون من مسائل وأفكار حول بناء المجتمعات الانسانية وطبيعتها، وتفسير التباين والاختلاف فيما بينها، ولكنهم لم يأخذوا بالنماذج المثالية (المجردة) للحياة الانسانية، بل وجهوا دراساتهم نحو الواقع الملموس والمحسوس ومع ذلك لا يجد الأنثروبولوجيون في الفكر الروماني ما يمكن اعتباره كاسهامات أصيلة في نشأة علم مستقل لدراسة الشعوب وثقافاتهم أو تقاليد راسخة لمثل هذه الدراسات.

ولكن يمكن أن يستثنى من ذلك أشعار "كاروس لوكرتيوس" التي احتوت على بعض الأفكار الاجتماعية الهامة، فقد تناول موضوعات عدة عرضها في ستة أبواب رئيسية ضمنها أفكاره ونظرياته عن تكوين العالم، وخصص الباب السادس لعرض فكرتي التطور والتقدم، حيث تحدث عن الانسان الأول والعقد الاجتماعي، ونظامي الملكية والحكومة، ونشأة اللغة، إضافة إلى مناقشة العادات والفنون والأزياء والموسيقى.

ج/ عند الصينيين القدماء

لم يعبأ الصينيون في القديم بالثقافات الأخرى خارج حدودهم، ومع ذلك لم يخل تاريخهم من بعض الكتابات الوصفية لعادات الجماعات البربرية والتي كانت تتسم بالازدراء والاحتقار. وهذا الاتجاه نابع من نظرة الصينيين القدماء للعنصرية، إذ كانوا يعتقدون –كالرومان– أنهم أفضل الخلق، وأنه لا وجود لأية حضارة ما عدا حضارتهم، وكانوا يرون أنهم لا يحتاجون إلى غيرهم في شيء، ولكي يؤكد ملوكهم هذا الواقع أقاموا " سور الصين العظيم" حتى لا تدنس أرضهم بأقدام الآخرين.

ولذلك اهتم فلاسفة الصين القدماء بالأخلاق وشؤون المجتمعات البشرية من خلال الاتجاهات الواقعية العملية في دراسة أمور الحياة الانسانية ومعالجتها، لأن معرفة الأنماط السلوكية التي ترتبط بالبناء الاجتماعي في أي مجتمع تسهم في تقديم الدليل الواضح على التراث الثقافي لهذا المجتمع، والذي يكشف بالتالي عن طرائق التعامل فيما بينهم من جهة، ويحدد أفضل الطرائق للتعامل معهم من جهة أخرى. وهذا ما يفيد الباحثين في العلوم الأخرى ولاسيما تلك التي تعنى بالانسان.

ثانيا: الأنثروبولوجيا في العصور الوسطى

أ/ العصور الوسطى في أوربا

لقد ظهرت في هذه المرحلة محاولات عدة للكتابة عن بعض الشعوب، إلا أنها اتسمت – غالبا– بالوصف التخيّلي بعيدة عن المشاهدة المباشرة على أرض الواقع، مثال ذلك ما قام به الأسقف " إسيدور" Isidore الذي أعد في القرن السابع ميلادي موسوعة عن المعرفة وأشار فيها إلى بعض تقاليد الشعوب المجاورة وعاداتهم ولكن بطريقة وصفية عفوية تتسم بالسطحية والتحيّز.

ومما ذكره، أن قرب الشعوب من أوربا أو بعدها عنها يحدد درجة تقدمها، فكلما كانت المسافة بعيدة كان الانحطاط والتدهور الحضاري، مؤكدا لتلك الشعوب ووصف الناس الذين يعيشون في أماكن نائية بأنهم من سلالات عربية الخلق حيث تبدو وجوههم بلا أنوف.

وقد ظلت تلك المعلومات سائدة وشائعة حتى القرن الثالث عشر، حيث ظهرت موسوعة أخرى أعدها الفرنسي " باتولو ماكوس" Batholo Macus والتي حظيت بشعبية كبيرة على الرغم من أنها لم تختلف كثيرا عن سابقتها في الاعتماد على الخيال.

ب/ العصور الوسطى عند العرب

تمتد من منتصف القرن السابع الميلادي حتى نهاية القرن الرابع عشر تقريبا، حيث بدأ الإسلام في الانتشار وبدأت معه بوادر الحضارة العربية الإسلامية أنذاك بالتكوين والازدهار وقد تضمنت هذه الحضارة: الآداب والأخلاق والفلسفة والمنطق، كما كانت ذات تأثيرات خاصة في الحياة السياسية والاجتماعية والعلاقات الدولية. وقد اقتضت الأوضاع الجديدة التي أحدثتها الفتوحات العربية الإسلامية ، الاهتمام بدراسة أحوال الناس في البلاد المفتوحة وسبل إدارتها، حيث أصبح ذلك من ضرورات التنظيم والحكم.

هناك من تخصص في وصف إقليم واحد مثل " البيروني" الذي عاش ما بين (362-440 هجرية) ووضع كتابا عن الهند بعنوان " تحرير ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة " وصف فيه المجتمع الهندي بما فيه من نظم دينية واجتماعية وأنماط ثقافية، واهتم أيضا بمقارنة تلك النظم والسلوكات الثقافية بمثيلاتها عند اليونان والعرب والفرس، أبرز " البيروني" في هذا الكتاب حقيقة أن الدين يؤدي الدور الرئيسي في تكبيل الحياة الهندية، وتوجيه سلوك الأفراد والجماعات وصياغة القيم والمعتقدات.

كما كانت لرحلات "ابن بطوطة" وكتاباته خصائص ذات طابع أنثروبولوجي ، برزت في اهتمامه بالناس ووصف حياتهم اليومية، وطابع شخصياتهم وأنماط سلوكاتهم وقيمهم وتقاليدهم. فمماّ كتبه في استحسان أفعال أهل السودان :" فمن أفعالهم قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا ظلم الآخرين، ومنها شمول الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم، ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت في بلادهم من (البيض والأجانب) ولو كان القناطير المقنطرة، وإنما يتركونه ليأخذه مستحقه.

أما كتاب " ابن خلدون" " العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر" فقد نال شهرة كبيرة وواسعة بسبب مقدمته الرئيسية التي تعتبر عملا أصيلا في تسجيل الحياة الاجتماعية لشعوب شمال إفريقيا ، ولاسيما العادات والتقاليد والعلاقات الاجتماعية، إلى جانب بعض المحاولات النظرية لتفسير كل ما رآه من أنظمة اجتماعية مختلفة، وقد اعتبر ابن خلدون أن التطور هو سنة الحياة الاجتماعية وهو الأساس الذي تستند إليه دراسة الظواهر الاجتماعية، وقد شكلت موضوعات هذه المقدمة –فيما بعد–

اهتماما رئيسيا في الدراسات الأنثروبولوجية. فقد قال ابن خلدون في مقدمته: "للعمران طبائع في أحواله" وهي ما يكون للمجتمع من خصائص ونظم في طبيعته تميزه عن باقي المجتمعات في ألوان السلوك الاجتماعي[1].

ثالثا: الأنثروبولوجيا في عصر النهضة الأوروبية

يتفق المؤرخون على أن عصر النهضة في أوربا بدأ في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي، حيث شرع الأوروبيون بعملية دراسة انتقالية للعلوم والمعارف الإغريقية والعربية، مترافقة بحركة ريادية نشطة للاستكشافات الجغرافية. وتبع ذلك الانتقال من المنهج الفلسفي إلى المنهج العلمي التجريبي في دراسة الظواهر الطبيعية والاجتماعية، والذي تبلور وتكامل في القرن السابع عشر.

إن هذه التغيرات مجتمعة أدت إلى ترسيخ عصر النهضة أو ما سمي (عصر التنوير) وأسهمت بالتالي في بلورة الأنثروبولوجيا في نهاية القرن التاسع عشر كعلم يدرس تطور الحضارة البشرية في إطارها العام وعبر التاريخ الإنساني، الأمر الذي استلزم توافر الموضوعات الوصفية عن ثقافات الشعوب وحضاراتها في أوربا وخارجها من أجل المقارنات ، والتعرف إلى أساليب حياة هذه الشعوب وترتيبها بحسب مراحل تطورية معينة، بحيث يضع ذلك أساسا لنشأة علم الأنثروبولوجيا. وقد تأثر المثقفون بإكتشافات البحارة بعد عام 1450 هنري البحار، الأمير البرتغالي الذي موّل أولى رحلات الاستكشاف، إيراسموس، إيزابيلا ملكة إسبانيا التي أولت ثقتها بكريستوف كولومبوس، إيزابيت ملكة بريطانيا التي أطلقت بلادها لفتح العالم.[2]

لعل أهم رحلة استكشافية مشهورة أثّرت في علم الأنثروبولوجيا تلك التي قام بها " كريستوف كولومبوس" إلى القارة الأمريكية ما بين (1492– 1502) حيث زخرت مذكراته عن مشاهداته واحتكاكاته بسكان العالم الجديد بالكثير من المعلومات والمعارف عن أساليب حياة تلك الشعوب وعاداتها وتقاليدها، اتّسمت بالموضوعية نتيجة للمشاهدة المباشرة. وكتب في وصفه لسكان أمريكا الأصليين: " إنهم يتمتعون بحسن الخلق والخلق، وقوة البنية الجسدية، كما أنهم يشعرون بحرية التصرف فيما يمتلكون، إلى حد أنهم لا يترددون في إعطاء من يقصدهم أياّ من ممتلكاتهم، علاوة على أنهم يتقاسمون ما عندهم برضى وسرور.

لقد تميز عصر النهضة الأوروبية بظاهرة كان لها تأثير في توليد نظريات جديدة عن العالم والانسان، وهي أن المفكرين اتفقوا –على الرغم من تباين وجهات نظرهم– على مناهضة فلسفة العصور الوسطى اللاهوتية التي أعاقت فضول العقل الانساني إلى معرفة أصول الأشياء ومصادرها، وتكوين الطبيعة وقوانينها، وصفات الانسان الجسدية والعقلية والأخلاقية. وظهر نتيجة لهذا الموقف الجديد اتجاه لدراسة الانسان، عرف بالمذهب الانساني

---

[1] رائد محمد طه. **اسهامات ابن خلدون في رفد علم الاجتماع والانثروبولوجيا مفاهيم لغوية**، ورقة بحثية مقدمة في مؤتمر "ابن خلدون علامة الشرق والغرب"، كلية الآداب، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2012. ص 16.

[2] فيليب لابورث، تولرا جان، بيار فارنيه، مرجع سابق، ص 21.

(العلمي) اقتضى دراسة الماضي من أجل فهم الحاضر، حيث اتجهت دراسة الطبيعة الانسانية وفهم ماهيتها وأبعادها وفق المراحل التاريخية التطورية للانسان.

أما بالنسبة للدراسات الاثنوغرافية (دراسة أسلوب الحياة والعادات والتقاليد) والدراسات الاثنولوجية (دراسة مقارنة لأساليب الحياة للوصول إلى نظرية النظم الاجتماعية) والدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية ، فثمة أعمال كثيرة قام بها العديد من العلماء.

وقد تكون محاولة الرحالة الاسباني (جوزيه آكوستا) J. Acosta في القرن السادس عشر لربط ملاحظاته الشخصية عن السكان الأصليين في العالم الجديد ببعض الأفكار النظرية، المحاولة الأولى لتدوين المادة الالاثنوغرافية والتنظير بشأنها.، فقد افترض آكوستا أن الهنود الحمر كانوا قد نزحوا أصلا من آسيا إلى أمريكا، وبذلك فسّر اختلاف حضاراتهم عن تلك التي كانت سائدة في أوربا حينذاك. وقدّم آكوستا أيضا افتراضا آخر حول تطور الحضارة الانسانية عبر مراحل معينة، معتمدا في تصنيفه على أساس معرفة الشعوب القراءة والكتابة.

وظهر إلى جانب آكوستا الاسباني في الدراسة الاثنوغرافية عن الشعوب البدائية عالم الاجتماع الفرنسي" ميشيل دي مونتاني" M.De.Montaigne الذي عاش ما بين (1532-1592) الذي أجرى مقابلات مع مجموعات من السكان الأصليين في أمريكا المكتشفة والذين أحضرهم بعض المكتشفين إلى أوروبا، وبعد أن جمع منهم المعلومات عن العادات والتقاليد السائدة في موطنهم الأصلي خرج بالمقولة الآتية:" إنّه لكي يفهم العالم فهما جيّدا ، لابدّ من دراسة التنوع الحضاري للمجتمعات البشرية واستقصاء أسباب هذا التنوع".

ويأتي القرن الثامن عشر ليحمل معه كتابات " جان جاك روسو" .J، J.Rossow التي احتلت أهمية كبيرة لدى مؤرخي علم الأنثروبولوجيا وذلك بالنظر لما تظمنته في دراستها الاثنوغرافية للشعوب المكتشفة (المجتمعات البدائية) مقارنة مع المجتمعات الغربية الأوروبية. فلقد تميزت وجهة النظر الأنثروبولوجية عند روسو بالتجرد والموضوعية، حيث تجلى ذلك في نقد بعض القيم والجوانب الثقافية في مجتمعه الفرنسي، مقابل استحسان بعض الطرائق الحياتية في المجتمعات الأخرى، وفي هذا الإطار يعدّ كتابه "العقد الاجتماعي" من البواكير الأولى للفكر الأنثروبولوجي. وكان إلى جانب روسو البارون " دي منتسكيه" الذي أوضح فكرة الترابط الوظيفي بين القوانين والعادات والتقاليد والبيئة، أما في ألمانيا فقد تبلور الفكر في عصر التنوير عن التفوق العنصري والنزعة القومية التعصبية وظهر ذلك واضحا في كتابات كل من جورج هيجل (1770-1831) وجوهان فخته (1762-1814) حيث جعلا الشعب الألماني الأمثل والأنقى بين شعوب العالم.

وتأسيسا على ما تقدّم، يمكن القول: أن الفكر الأنثروبولوجي الذي ساد أوربا في عصر التنوير، وتجلى في كتابات العديد من الفلاسفة والباحثين والمؤرخين، شكّل الملامح الأولى لعلم الأنثروبولوجيا الذي بدأ يستقلّ بذاته مع بدايات القرن العشرين، ويتبلور بمنطلقاته وأهدافه في النصف الثاني من القرن ذاته هدفه دراسة حياة الانسان

في المجتمعات البدائية وحتى المتحضرة وأهم الأدوات التي كان يستخدمها وأهم الرموز المتداولة في الحياة اليومية في تلك المجتمعات .

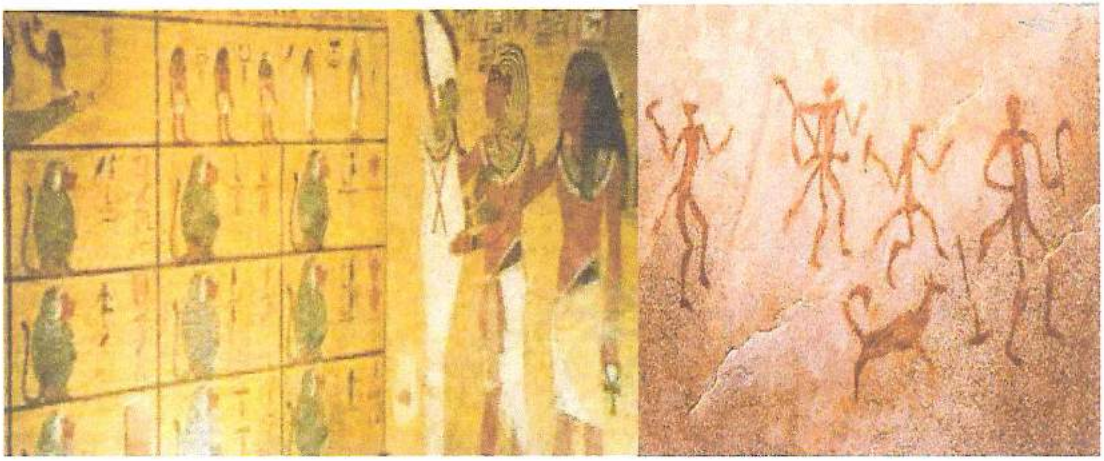

ثانيا: الإثنولوجيا: (علم الأعراق البشرية) Ethnologie

يمكن القول بأن الإثنولوجيا تبدأ حيث ينتهي علم الآثار، وهي كلمة يونانية قديمة تتكون من مقطعين: **Ethnos** التي تعني: " العرق والسلالة والجنس"، و**logy** التي تعني "علم" وعليه معنى الإثنولوجيا هو "علم الأجناس، أو علم الأعراق البشرية أو علم السلالات" ويهتم هذا العلم بدراسة ووصف الثقافات المختلفة أينما وجدت سواء في القارات الشاسعة، أو في صحراء وغابات إفريقيا أو الجزر المنعزلة والمتناثرة جنوب

المحيط الهادي، أو في المدن المكتظة بالسكان، يهتم هذا العلم بالناحية العرقية وسلالات الشعوب وكذا حركة ونزوح الشعوب وانتشارها وتوزعها ولغاتها وعاداتها وأعرافها.

يعتبر هذا العلم فرع من فروع الأنثروبولوجيا العامة وهو الذي يهتم بدراسة الشعوب الانسانية واختلافاتها وذلك من خلال دراسة الإثنيات وأعراق الجماعات البشرية المختلفة حتى ولو كانت أقليات.، فقد عرفها " بريتشارد" بأنها: " علم تصنيف الشعوب على أساس خصائصها ومميزاتها السلالية والثقافية، وتفسير توزعها في الماضي والحاضر نتيجة لتحركها واختلاطها وانتشار الثقافات"، وتعرف أيضا على أنها " دراسة مقارنة للثقافات وبحث المشكلات النظرية التي يمكن عن طريق تحليلها معرفة العادات الانسانية". وهي أيضا " فرع من الأنثروبولوجيا يتخصص بتحليل المادة الثقافية وتفسيرها بطريقة منهجية تشبه في سماتها العامة الأنثروبولوجيا الثقافية". تعتمد الاثنولوجيا في تفسير توزيع الشعوب —في الماضي والحاضر– على أنه نتيجة لتحرك هذه الشعوب واختلاطها.[1]

كما عرفت أيضا على أنها " العلم الذي يهتم بدراسة الفروض والنظريات التي وضعت لتصنيف الشعوب على أساس الخصائص والمميزات السلالية ، وبيان مدى ردّ الانسانية إلى جنس واحد أو أكثر، وما يثار من جدل حول الجنس الأمثل". فالاثنولوجيا هي نفسها شأن حضاري، تقليد عريق ينتقل من جيل لآخروهي بذلك جديرة بتحليل اجتماعي وتاريخي يبين ركائزها الأساسية.[2]

يقتصر هذا العلم على دراسة الشعوب والثقافات، وتاريخ حياة الجماعات دون النظر إلى مدى تطورها وتقدمها

تختص الإثنولوجيا بدراسة ثقافة المجتمعات الموجودة وقت الدراسة، وكذلك الثقافات التي فرضت بشرط توافر تسجيلات مكتوبة لشهود عاشوا في تلك الثقافات، ويدرس الاثنولوجي كل ثقافة لمجتمع أو مجتمعات التي يبحث عنها، ولذلك يبحث في النظم السياسية والاقتصادية والدين والتقاليد والفنون وفروع المعرفة والصناعة وكذلك المثل العليا. أي: كل ما يتعلق بمجتمع الدراسة من مسائل حضارية.

ويدخل في الإثنولوجيا عدد كبير من التخصصات كدراسة الأساطير، والآداب الشعبية، والموسيقى واللغات والرقص، ونظم القرابة، والأسرة في المجتمعات البدائية ، بالإضافة إلى البحث في أنشطة تلك المجتمعات الاقتصادية وأنظمتها الحكومية والقانونية والدينية.

وقد اعتمدت الأصول الأولى للإثنولوجيا على المستويين: النظري والمنهجي في دراسة ما خلفته الشعوب القديمة من حكايات شعبية وأساطير معقدة على الوصف والتحليل بقصد استنباط أنماط من الانجازات الحضارية الهامة،

---

[1] مقال بعنوان: الإثنولوجيا على الرابط https://ajialpress.com/2012/10 تاريخ الولوج: 2021/10/10 على الساعة 20:38

[2] فليب لابورث، تولرا جان، بيار فارنييه. **إثنولوجيا أنثروبولوجيا**. ترجمة: مصباح الصمد، ط1، مجد للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004، ص 19.تعتمد ال

والتي تشكل منعطفات في تاريخ تطور الانسان، كاكتشاف النار واختراع أو صناعة بعض الأدوات والفنون المفيدة.

يقوم الإثنولوجي بالوصف والمقارنة بين الثقافات التي يصفها الإثنوغرافي، والهدف من تلك المقارنات الوصول إلى قوانين عامة للعادات الانسانية ولظاهرة التغير الثقافي وآثار الاتصال بين الثقافات المختلفة، كما يهدف الإثنولوجي إلى تصنيف الثقافات إلى مجموعات أو أشكال على أساس مقاييس معينة.

ومن ميزات الاثنولوجيا أنها تعتمد عمليتي التحليل والمقارنة، فتكون عملية التحليل في دراسة ثقافة واحدة، بينما تكون عملية المقارنة في دراسة ثقافتين أو أكثر. وتدرس الإثنولوجيا الثقافات الحية (المعاصرة) والتي يمكن التعرف إليها بالعيش بين أهلها، كما تدرس الثقافات المنقرضة (البائدة) بواسطة مخلفاتها الأثرية المكتوبة والوثائق المدونة، وتهتم إلى جانب ذلك بدراسة ظاهرة التغير الثقافي من خلال البحث في تاريخ الثقافات وتطورها. وكان علماء الإثنولوجيا وإلى عهد قريب جدا يقتصرون أبحاثهم في الظواهر الاجتماعية والانسانية للمجتمعات الثقافية، وكانوا يعتبرون الفرد كما لو أنه مجرد ناقل للثقافة، أو حلقة من سلسلة الوحدات المتماثلة التي يمكن أن تستبدل الواحدة منها بأخرى، ولكن وبعد دراسات عديدة تبين لهؤلاء العلماء أن المعايير الشخصية تختلف باختلاف الأفراد والمجتمعات والثقافات.

فإذا كان القول بأن الإثنولوجيا تدرس الظواهر الثقافية دراسة رأسية، أي دراسة مقارنة زمانية تاريخية لثقافات الماضي مع متابعة دراسة تلك الثقافات وتطورها ومقارنتها عبر التاريخ، فإن الاثنوغرافيا تدرس الظواهر الثقافية دراسة أفقية محددة المكان، وهكذا تكون الاثنولوجيا دراسة مقارنة في الزمان، بينما تكون الاثنوغرافيا دراسة مقارنة في المكان.

2-الإثنولوجيا عند ابن خلدون:

خصّص ابن خلدون قسم كبير من مقدمته في بيان الجماعات الإثنية وأصل سلالاتها مع التركيز على العنصر العربي، إضافة إلى حديثه عن الجماعات العرقية الأخرى مثل البربر، التركمان، والرومان، والفرس وغيرهم. لكنه يرى أصل الشعوب هو المجتمع البدويالذي يتطور إلى شعوب حضرية متمدنة فيما بعد بفعل عامل العصبية، وهو يوضح ذلك عندما يقول: "فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما، لأن أول مطلب الانسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا،...ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه، أنا إذا بناحية ذلك وفي قراه، وأنهم أسيروا فسكنوا المصر وعدلوا على الترف الذي في الحضر" وذلك يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداوة وأنها أصل لها.

وعند حديثه عن العرب وأصولهم فإنه يقوم بتقسيمهم إلى ثلاث طبقات رئيسية هي:

أ/ العرب العاربة: وهي شعوب بدائية.

ب/ العرب المستعربة: وهي الشعوب التي بدأت تعرف الكتابة.

ج/ العرب التابعة: هي الشعوب التي بدأت تابعة للغرب.

من ناحية أخرى أشار ابن خلدون إلى النسب ودراسة سلالات الشعوب في المجلد الثاني من كتابه المقدمة إلى المنهجية التي اتبعها في تحليل وتتبع سلالة أي شعب من الشعوب التي درسها.

3-تطور الإثنولوجيا في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية

إن كلمة " الإثنولوجيا" قلّما تستعمل في هذين البلدين وهي ترتبط بالدراسات التاريخية للحضارات على نحو ما كانت تجرى في القرن 19، أي بصورة افتراضية للغاية، لذا يشير الباحث الانجليزي " براون" إلى أن الاثنولوجيا تعتمد التاريخ التخميني الذي يفتقد العناصر التاريخية أو الأثرية الموثوقة، فهي تسعى إلى تفسير مؤسسة من المؤسسات من خلال التركيز على المراحل التي اجتازتها عبر نموها، كما أن الإثنولوجيا ترتبط في الولايات المتحدة الأمريكية بتاريخ الحضارات لكنها ترتبط أيضا بدراسة عناصر الثقافة دراسة تفصيلية تقارب التوصيف المتحفي.

هكذا يأخذ الانجليز والأمريكيون على الإثنولوجيا تقصيرها في أن تكون علما شاملا يسعى إلى تبيان كيفية استمرار المجتمع برمته وضياعها في خضم التخمينات التاريخية أو التصنيفات التفصيلية.

4- النظرة إلى تطور الحقبات الإثنية (العرقية) حسب لويس مورغان L.Morgan

لقد تبنى علماء الأنثروبولوجيا نظرية التطور الثقافي من خلال إقامة مراحل مختلفة تمثل عمليا التقدم الإنساني، فنجد مثلا " لويس مورغان" L.Morgan في كتابه " المجتمع القديم" قد قسم مسار تطور البشرية إلى ثلاث حقب رئيسية هي: الهمجية، ثم البربرية، ثم مرحلة الحضارة، حيث قسم كل مرحلة إلى ثلاث مراحل فرعية هي: الدنيا والوسطى والعليا، وربط كل مرحلة باختراع معين كان سائدا في تلك المرحلة، وجعل الاختراعات التكنولوجية العوامل المساعدة على التطور والمرور من مرحلة إلى أخرى.

وقد حاول " لويس مورغان" L.Morgan أن يربط بين هذه الحقب وبين مجتمعات بدائية موجودة في عصره، حيث ربط بين الهمجية الدنيا وهي مرحلة ما قبل اكتشاف النار واختراع اللغة، وربط الهمجية الوسطى بسكان أستراليا الأصليين والتي ساد فيها صيد السمك واستخدام النار وبداية اللغة...الخ. والجدول الآتي يوضح هذه الحقبات وأهم الاختراعات المكتشفة في كل حقبة والتنظيم الاجتماعي والسياسي لكل حقبة:

الصارمة التي أهملها في التشريع السابق والحاقها بالتشريع اللاحق، وذلك ما أشار إليه كل من "فريزر" و"سبنسر" و"هوايت" وينطبق مع ماذهب إليه مورغان إذ ذكروا أن أولئك المصلحين الذين ظهروا في عصور متلاحقة قد غيروا فأحسنوا التغيير فساروا في طريق يتلائم مع نمط حياتهم[1].

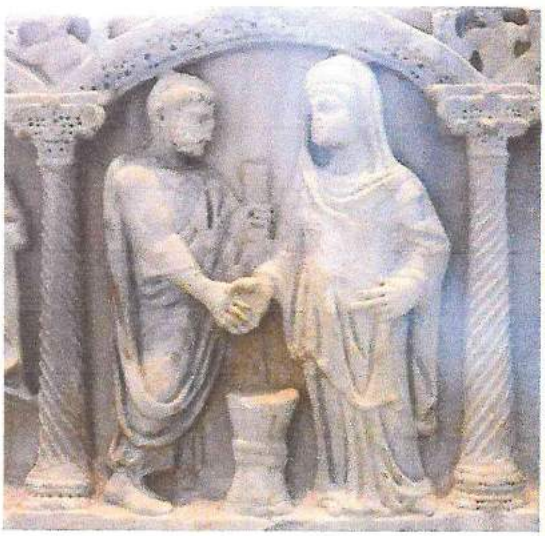

فبعد دراسة المراحل التي مرت بها المجتمعات القديمة كشف " لويس مورغان" عن أمثلة للإباحية والزواج الجماعي في المجتمعات البدائية، ويشير في كتاباته إلى أن هذا النظام لم ينشأ بصفة تلقائية، وإنما نشأ للقضاء على نظام المشاعية الجنسية التي كان يرى أنها كانت سائدة في كل المجتمعات الانسانية في مراحلها الأولى، وهذا الافتراض جاء بعد دراسة تطور المجتمع البشري وأهم المراحل التي مرّبها، إذ وضع سلما تطوريا أو مراحل سماها بمراحل التطور، فقد كانت نساء كل عشيرة حقا مشاعا لجميع رجالهايستمتعون بهن دون قيود تجبرهم على الزواج بهم، ثم إنه نتيجة لعدة تغيرات عميقة في مختلف المجالات أصبح لابد من تنظيم عملية الزواج في العشيرة فمورغان وأتباعه لا يستبعدون أن يكون الفضل فيه عائدا إلى طائفة من الحكام والمصلحين الذين أخذوا يضيقون القيود شيئا فشيئا على العلاقات الزواجية القرابية وذلك ما أشار إليه كل من (فريزر وسبنسر وهوايت) وينطبق مع ما ذهب إليه مورغان، إذ ذكروا أن أولائك المصلحين الذين ظهروا في عصور متلاحقة قد غيروا فأحسنوا التغيير، فساروا في طريق يتلائم مع نمط حياتهم.

5-الإثنولوجيا المعاصرة

من ناحية أخرى، نجد أيضا اهتمام علماء الأنثروبولوجيا المعاصرين بفرع الإثنولوجيا أو علم دراسة الشعوب، والأمر الحيوي في هذا الفرع هو أن دراساتهم وأبحاثهم حيوية في وقتنا الحاضر بالنسبة للعديد من الدول خاصة العظمى منها، وكذلك بالنسبة للمنظمات الدولية كالأمم المتحدة، خاصة تلك المتعلقة بالأعراق التي تقطن مناطق

[1] عبد الواحد الوافي. **الأسرة والمجتمع**، ط7، مطبعة النهضة المصرية ، مصر، 1977، ص 51.

منابع النفط ومواد الخام الأخرى، أو تعيش على ضفاف الأنهار الدولية مثل إفريقيا، أو التي تقطن على ضفاف المعابر البحرية الدولية.

الموضوعات الكبرى التي تهتم بها الإثنولوجيا المعاصرة هي أنماط التفكير والسلوك وعادات الزواج والعلاقات القرابية والفن والموسيقى، إلا أن الباحث " محمد حسن غامري" صنف موضوعات الإثنولوجيا المعاصرة إلى ثلاث فئات رئيسية هي:

أ/ الاثنوغرافيا: تتضمن دراسة وبحث العلاقة بين السلوك والبيئة الطبيعية وبالتالي يحاول الباحث الأنثروبولوجي الإجابة على الأسئلة الآتية:

-كيف يرتبط السلوك الاقتصادي مع السلوك السياسي؟

-كيف تتكيف عادات الناس مع ظروف البيئة التي يعيشون فيها؟

ب/ دراسة الشعوب في الماضي: التي تتضمن دراسة الشعوب في الماضي على نحو النمط الذي عرضناه حول دراسات ابن خلدون، وأهم مصادر مثل هذه الدراسات: الوثائق والآثار والمعابد والرموز والرسومات على الحجارة والأهرامات والمباني والمقابر الأثرية والقطع النقدية والأواني الفخارية وغيرها.

ج/ الدراسات المقارنة: تقوم مثل هذه البحوث بعقد مقارنات بين مختلف الثقافات في عصر معين أو بين عصور مختلفة .

لقد تبلورت الإثنولوجيا بعد الحرب العالمية الثانية، وشكلت ما يمكن الإشارة إليه بالأنثروبولوجيا المعاصرة، وساعد هذا الاتجاه ودعمه ازدياد عدد الأنثروبولوجيين في البلدان النامية، بعد أن كانت هذه المهنة مقتصرة على الباحثين الغربيين، ولم تعد الإثنولوجيا تقتصر مجال دراستها على المجتمعات صغيرة الحجم أو المحلية ذات الثقافات غير الغربية، وإنما اتجهت لتوسيع مجالها بحيث تشمل الثقافات والمجتمعات كلها على اختلاف حجمها وموقعها.

غير أن هذا التنوع الذي اتّصفت به الإثنولوجيا في القرن العشرين أدّى إلى حدوث بعض التضارب في الدراسات، وهذا ما أفقدها الكثير من الاستقرار الأكاديمي، علاوة على تمسكها بالنواحي المنهجية أكثر من توصلها إلى نظريات علمية، الأمر الذي أثار العديد من التساؤلات حول كيفية دراسة الثقافات الانسانية وعلميتها وصلتها بقضايا الانسان المعاصر.

ثالثا: الإثنوغرافيا Ethnography

1-مفهومها:

الإثنوغرافيا Ethnography كلمة انجليزية مشتقة من المقطعين اليونانيين: Ethnos التي تعني سلالة أو شعب أو ناس، وgrapheing تعني الكتابة والوصف، وبذلك يكون معناها هو " الكتابة عن الشعوب أو وصف الشعوب" ويترجم هذا العلم " بعلم الإنسان الوصفي". قدمت عدة تعريفات لعلم" الإثنوغرافيا" أهمها:

- " علم وصف الأعراق مجاله الدراسة الوصفية لطرائق وأساليب الحياة لعرق من الأعراق أو مجتمع أو شعب" .

- عرفت في معجم العلوم الاجتماعية على أنها "وصف الشعوب".

- " هي ملاحظة وتسجيل المادة الثقافية من الميدان ووصف النشاط الثقافي كما يبدو "

- الاثنوغرافيا تقوم على وصف الأماكن، الأحداث، الأشخاص والأشياء ويحتاج الباحث للدقة، وللتفاصيل الصغيرة والتأريخ لها.[1]

- وهي أيضا " الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد والعادات وأصناف التراث الخاصة بالإثنيات أي تلك التجمعات البشرية (الإنسانية) التي تتصف ببنية عائلية واقتصادية واجتماعية متجانسة، حيث تقوم الوحدة على لغة وثقافة مشتركة".

- كما تعني " الدراسة الوصفية للتقاليد والعادات والقيم والأدوات والفنون والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة خلال فترة زمية محددة ".

- وهي " مقترب يركز على فهم السلوك في سياق اجتماعي عبر مشاركة الباحث في المجال المدروس مشاركة فاعلة، ليوفر تقريرا وصفيا معتمدا على أدوات بحثية مميزة من مقابلات موجهة وغير موجهة والملاحظة بالمشاركة والتصوير الفوتوغرافي وغيرها من الأدوات التي تستند عليها الدراسات الإثنوغرافية".

يتطلب الوصف الاثنوغرافي قضاء فترة طويلة في الدراسة العميقة، كما يتطلب الإقامة في جماعة صغيرة محددة تماما، ويتطلب المعرفة باللغة التي تتكلمها تلك الجماعة، والاستخدام الواسع المدى للطرق الفنية في الملاحظة، بما تتضمنه من اتصالات ممتدة مباشرة بأعضاء الجماعة المحلية والمشاركة المباشرة في بعض نشاطاتها.[2]

---

[1] Florence Weber, Stéphane Beaud, **Guide de l'enquête de terrain**, Edition la découverte, Paris, 1997, p 94.

[2] محمد عبده محجوب. **اثنوغرافيا المجتمعات البدوية العربية**، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2008، ص 08

وعليه يمكن القول بأن الإثنوغرافيا هي الدراسة الوصفية للمجتمعات الإنسانية سواء البدائية أو التي لا تزال في مراحل متميزة اجتماعيا واقتصاديا وفكريا، وهي تعنى بجمع المعلومات وشرحها بطريقة وصفية أكثر دقة كما هو ملاحظ في الواقع (الميدان) حيث تقوم بتحليلها واستخلاص بعض الفروض والنظريات منها، فقد استطاع هذا العلم في منتصف القرن 19 تغذية علم الأنثروبولوجيا بأبحاث نظرية.

وتبدأ الدراسات الإثنوغرافية بوصف البيئة المادية للمجتمع المحلي قيد الدراسة، فتصف مكان المجتمع، والمسكن والملبس، والأدوات، ثم ينتقل الباحث الإثنوغرافي إلى وصف القطاع الاجتماعي لثقافة هذا المجتمع الذي يتضمن النظم الاجتماعية المختلفة وأهمها النظم الاقتصادية والقرابية والزواج، والنظم السياسية والدينية والتربوية، وقواعد الضبط الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية، وأخيرا ينتقل الباحث إلى وصف القطاع الفكري والرمزي لثقافة المجتمع وفنونه وقيمه.

2- البدايات الأولى للدراسات الإثنوغرافية

لقد قام العرب بدراسات إثنوغرافية منذ عهد بعيد، واشتهر رحالتهم بالكشف عن معالم مجتمعات مختلفة وفي مقدمتهم "المسعودي" (956م) في كتابه " مروّج الذهب ومعادن الجوهر" و "ابن حوقل" (977م) في كتابه " المسالك والممالك" وتوسع الرحالة الأوروبيون في ذلك فيما بعد. ويعد مصطلح " الإثنوغرافيا" أحد المصطلحات التي ظهرت مع ثورة الدراسات الحديثة، حيث يعتقد الباحث " دياس" " Dias " أن هذا المصطلح قد ظهر سنة 1807 م، غير أنه لم يلق رواجا إلا عام 1824م على يد العالم الفيزيائي " أمبير" في كتابه " مقال حول الفلسفة" الذي جعلها فرعا من فروع الأنثروبولوجيا.

فمع أنّ جذور الوصف الإثنوغرافي قديمة كما أسلفنا، فإن معظم الملاحظات والتأويلات للمجتمعات الإنسانية قد استمرّت تتناقل بطريقة شفوية، فقد أتيحت فرصة الإحتفاظ بمدونات لبعض الأوصاف المبكرة، واستمرار تسجيل تلك الملاحظات في وثائق بصورة ملحوظة مع الرحلات الأوروبية والاستكشافات، ومع بداية القرن الخامس عشر (15) ولعدة مئات من السنين كانت أوصاف الممارسات الثقافية اكتب إلى حد بعيد خلال رحلات الاستكشاف والنشاطات البشرية، وإنشاء الحكومات، والمراكز الاستعمارية، ويرجع الفضل في هذا إلى كتاب "هاول" بعنوان (تعليمات في الأسفار الخارجية) وهو كتاب حول الإثنوغرافيا والإثنولوجيا في القرن السادس عشر (16).

وابتداء من عام 1925، أي قبل الحرب العالمية الثانية، أصبحت الدراسات الإثنوغرافية نشاطا بحثيا متخصصا، كما كان هناك تحول من الاهتمام المسيطر بجمع المادة البحثية وتراكمها إلى التحليل الأكثر عمقا لأنماط ثقافية معينة. ونذكر كتاب " مالينوفسكي" بعنوان (مجتمع الأرجنوتس) في جنوب المحيط الهادي) كما أدى الاهتمام

المتزايد بدور الباحث الإثنوغرافي في موقف البحث الميداني، وإلى مزيد من التقدير الواعي للطريقة التي يتم بواسطتها تسجيل المادة الإثنوغرافية.

وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة بدأت الإثنوغرافيا تجتذب مزيدا من الاهتمام، كما كان هناك تركيزا متزايدا على أنساق الاتصال والنماذج البنائية مثل كتاب "ليفي ستروس" بعنوان (الأنثروبولوجية البنائية) الذي صدر سنة 1958، كما كان هناك اهتمام مركز بتنمية وسائل أكثر فاعلية في حصر المتغيرات الثقافية والشخصية في المواقف الحقلية الواقعية.

فالإثنوغرافيا هي من أقدم فروع المعرفة في علم الأنثروبولوجيا عندما قام الأوروبيون بوصف القبائل والشعوب المحلية في أمريكا وإفريقيا وأستراليا وآسيا، حيث وصفوا أدواتهم وعاداتهم وتقاليدهم وكل ما يتصل بثقافاتهم المادية المختلفة والرمزية. وسرعان ما تبنى الأنثروبولوجيون هذه المعلومات واستخدموها في دراساتهم لتطوير المجتمع البشري. أما في علم الآثار فقد استخدمت هذه المعلومات من المجتمعات البدائية والبسيطة والتقليدية لنماذج مجتمعات ما قبل التاريخ والتاريخ القديم وذلك عن طريق عقد المقارنات البسيطة وحتى أسماء ووظائف الأدوات التي توجد في المواقع الأثرية ، أخذت من المعلومات التي جمعت من خلال دراسة الشعوب البسيطة التي وصفها الإثنوغرافيون.

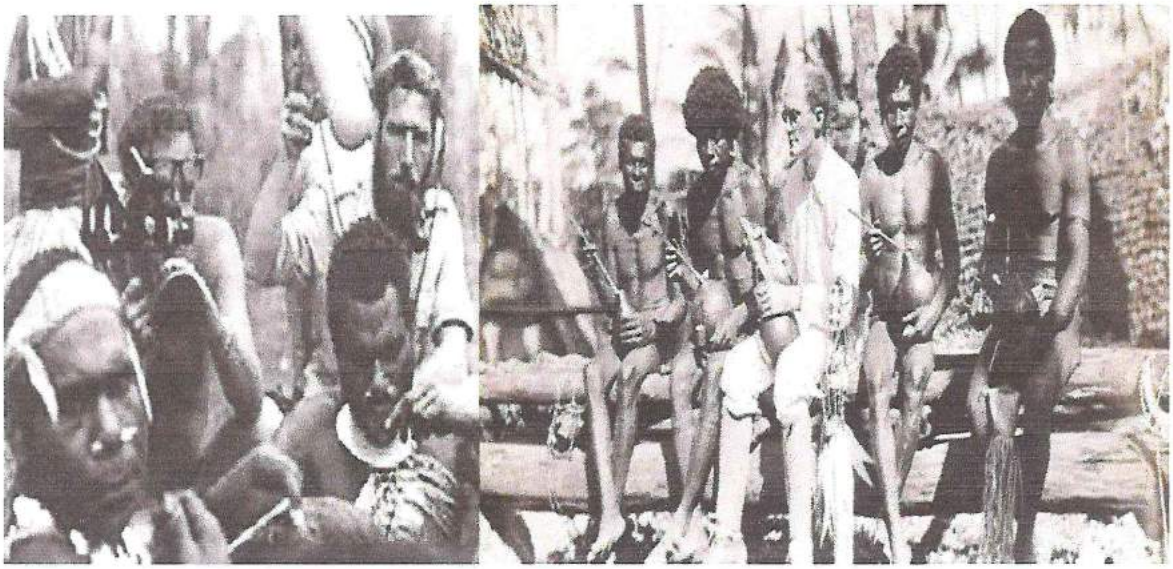

وقد ارتبطت الرحلات والبعثات الاستكشافية بالتوسع الإستعماري الأوروبي في أواسط القرن التاسع عشر ، فقد ساعدت على هب ثروات المناطق المستعمرة من جهة والتعرف على الشعوب التي تمتلك تلك الثروات من جهة

ثانية، لذلك كانت الإثنوغرافيا عبارة عن " دراسة هذه الشعوب وتصنيفها على خرائط وبيانات قبل البدء بعملية نهبها "[1]

ويعود ظهور الدراسات الإثنوغرافية في الإعلام إلى سنوات الثمانينات إلى الدراسات الثقافية Cultural Studies في بريطانيا بداية السبعينات تحت مركز الدراسات الثقافية المعاصرة، حيث غيّرت هذه الأخيرة نظرتها النقدية إلى طبيعة وعمل وسائل الإعلام، وكذلك انتقاداتها الحادة للمناهج الكمية المستخدمة في الاتصال، ويعود توجه البحوث والدراسات الإعلامية والاتصالية باستخدام المنهج الاثنوغرافي لفهم ظواهر الإعلام والاتصال، متأثرة بالفكر النقدي لرواد مدرسة فرانكفورت النقدية.

وعلى الرغم من كون المنهج الإثنوغرافي منهجا قديما تم توظيفه في ميدان الأبحاث الاجتماعية، إلا أن أبحاث الاتصال في السنوات الأخيرة أصبحت تعتمد عليه في دراساتها، ومن أشهر الباحثين في ميدان الاتصال الذين قاموا بتوظيفه نذكر بعض أعمال "دافيد مورلي"، مع ملاحظة أن الأعمال الأولى المؤسسة لهذا المنهج هو عمل الباحث "Richard Hoggart" الذي حاول من خلاله دراسة مختلف الأبعاد الخاصة بالحياة اليومية للطبقة الشغيلة في إنجلترا ووصفها وصفا دقيقا. خاصة وأن انتشار التليفزيون في تلك الفترة أدى إلى ولوج الثقافة الجماهيرية في تلك الأوساط الشعبية وهذا ما يكرس ظهور نوع من المقاومة لمواجهتها، علما أن عمله هذا نشر في كتاب تحت عنوان "La culture du pauvre". وعودة لما ذكرناه في بداية هذه النقطة فقد عمل " David Morley" على الابتعاد عن الانبهار بالنموذج السيميولوجي الذي يفترض قراءة منمطة وموحدة للصور، وعمل على تبني نموذج "Stuart Hall" المشهور في ميدان بحوث الاتصال الترميز وفك الترميز.

وأمام عجز الدراسات والبحوث الإمبريقية –الكمية– في دراسة وتفسير السلوكيات الاتصالية للمتلقي، وكيفية تفاعله مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها من مختلف الوسائل الإعلامية، ظهر توجه جديد في دراسة سلوك المتلقي أو الجمهور، يتمثل في المنظور أو المقترب الإثنوغرافي في دراسات الجمهور، وقد كانت البداية مع الأبحاث التي أجراها دافيد مورلي "David Morley" في منتصف الثمانينات حول الاستعمالات الأسرية للتليفزيون، وما طرحه من مفاهيم "سياق المشاهدة" (Viewing)، "السياق المنزلي" (context)، والديناميكية العائلية، وهذا مع طرحه لنموذج التفاعل والتأويلات، حيث اقترح فكرة وجوب فهم التكنولوجيا كنظام تقني ومادي واجتماعي وثقافي، من خلال الاعتماد على المقاربة الإثنوغرافية لرصد التفاعلات التي تحدث بين أفراد الأسرة الواحدة في سياق عائلي معقد مليء بالممارسات والنقاشات الجماعية، أين اتخذ الأسرة كوحدة تحليل جزئية من المجتمع ككل.

وبذلك احتل عمل "Morley " المتصل بإثبات الطابع الفاعل للجمهور داخل الدراسات الثقافية قدرا كبيرا من الأهمية، إذ سمح للعديد من الدراسات باتخاذه كمرجعية ومنهجية لأعمالهم ، وتتمثل بعض أعمال هذا الأخير فيما يلي:

---

[1] لوكلرك جيرار. **الأنثروبولوجيا والاستعمار**، ترجمة: جورج كتوره، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1990، ص 22.

جمهور برنامج "Nationwide": تعتبر هذه الدراسة (1980) بمثابة تحول فاصل في الاتجاه البحثي لما يعرف بالدراسات الإعلامية، فقد ركزت هذه الدراسة على تحليل برنامج إخباري بريطاني موجه إلى جمهور واسع غير متجانس، يتكون من 29 مجموعة كانت قد شاهدت هذا البرنامج في BBC1، وتعكس هذه المجموعات بنيات اجتماعية واقتصادية مختلفة.

وقد توصل الباحث إلى نتيجة مفادها أن النص لا يتم إنتاجه بطريقة معزولة وإنما تتدخل فيه مجموعة من الشروط التاريخية تعطي للنص دلالته من جهة، ومن جهة ثانية أعاد التوكيد على أن الرسالة متعددة المعاني (le message est) نتيجة لتعددية القراءات.

3-أنوع الإثنوغرافيا: تصنف الإثنوغرافيا إلى ثلاثة أنواع هي:

أ/ الإثنوغرافيا الكلاسيكية: وهي التي تتطلب من الباحث المكوث عدة سنوات في ميدان البحث.

ب/ الإثنوغرافيا الحديثة: مدتها قصيرة مقارنة بالنوع الأول، فهي تتطلب من الباحث المكوث مدة معينة بحيث يستطيع جمع المعلومات عن الجماعة أو السلالة أو الشعب المراد دراسته باستخدام أهم الأدوات والتقنيات المتمثلة في: الملاحظة بالمشاركة والمقابلة بنوعيها الموجهة وغير الموجهة والتصوير الفوتوغرافي وغيرها من الوسائل والطرق التي تستخدم في البحث الإثنوغرافي.

ج/ الإثنوغرافية الإفتراضية: وتسمى أيضا اثنوغرافيا على الخط أو إثنوغرافيا السيبر وهي تلك الطرق البحثية على الانترنت والتي تعتمد أساليب البحث الاثنوغرافي لدراسة المجتمعات والثقافات التي تم إنشاؤها من خلال التفاعل الاجتماعي عبر الحواسيب، إذ تُعدّ وسيلة ناجعة في تحليل الشبكات ودراسة التجمعات في السياقات الافتراضية.

د/ الأنثروغرافيا الواقعية: يستخدم الأنثروبولوجيون الثقافيون الإثنوغرافيا الواقعية بوصفها مدخلا تقليديا، وضع ملامحها "فان مانن" 1988م، فهي تعكس نموذجا معينا يتخذه الباحث اتجاه الحالات المدروسة، إنها دراسة موضوعية واقعية للموقف، وذلك من خلال إعداد التقارير التفصيلية عن الحياة اليومية للأفراد قيد الدراسة.

هـ/ الإثنوغرافيا النقدية: هي نوع من البحث الإثنوغرافي يدافع فيه أصحابه عن تحرير الجماعات المهمّشة في المجتمع، يكون الباحثون النقديون عادة أشخاصا ذوي عقلية سياسية، إذ يتطلعون إلى اتّخاذ موقف معارض لعدم المساواة والهيمنة. يدرس الإثنوغرافي النقدي موضوعات لها علاقة بالقوة، والظلم، واللامساواة، والهيمنة، والقمع، والسيطرة والفساد.

4-أهمية الإثنوغرافيا

تكمن أهمية الإثنوغرافيا في الدراسات الحديثة كونها المرحلة التطبيقية الأولية التي تقوم بتجميع المعطيات وهي مرحلة تستوجب عادة القيام بتحقيق ميداني قوامه المعاينة والوصف والعمل الميداني، ولا يمكننا القيام بأي عمل دون

الاستعانة بالنظريات والفرضيات كون الجامع للمعلومات أو الباحث يعتمد على القيام بمعاينات قصد الإجابة على مجموعة من التساؤلات وقد كانت من قبل عفوية تستنبط من خلال الملاحظات التي يقدمها الرحالة والمستشرقون ، كما يمكن استنباطها من الكتب.

أما حاليا فقد اشترط مؤسسوا هذا العلم أن يقوم بها باحثون مدربون مترسون ولديهم قدرات واستعدادات خاصة، يمكن تنميتها بالتدريب المستمر على جمع المادة، وبهذا أصبحت تحتل مقاعد في الجامعات العالمية وتدرس من طرف أساتذة متخصصون، كما أنها قد تكون ذات إطار مرجعي، وإقليمي بحيث يعبّر عن منطقة معينة مثل: إثنوغرافيا العالم العربي والمجتمعات الإفريقية.

تعد الإثنوغرافيا مقدمة للعمل الإثنولوجي، وهي بذلك تمثل جانبا من الدراسة الإثنولوجية، فهي تعمل على تسجيل المادة الثقافية من الميدان. أي تقوم بوصف أوجه النشاط الثقافي البشري، ولا تسعى الإثنوغرافيا إلى التقويم وإنما إلى تقديم صورة واقعية وتقريرية للأمور الحياتية.

5- العلاقة بين الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا والإثنوغرافيا

من المعلوم التذكير بأن أي دراسة اجتماعية تتضمن المراحل الثلاث هذه، فكل باحث يسير وفق خطوات مدروسة تبدأ بالإثنوغرافيا " تجميع المادة من الميدان"، ومن ثم الإثنولوجيا " ترتيب البيانات وتنظيمها ومقارنتها" بعد ذلك الأنثروبولوجيا " التحليل والتنظير". فالإثنولوجيا تتضمن عملية التحليل للمادة الإثنوغرافية، ومهما يكن من أمر فإن المادة الإثنوغرافية تشكّل قاعدة أساسية لعمل الباحث الأنثروبولوجي.

يتحدد مفهوم الإثنوغرافيا –أكاديميا– بأنه الوصف الدقيق والمترابط لثقافات الجماعات الإنسانية، واصطلاح الإثنوغرافيا في بريطانيا يعني البحوث الوصفية والتحليلية التي قام بها علماء الأنثروبولوجيا البريطانيون حول الشعوب والأقوام والمجتمعات البدائية التي درسوها دراسة ميدانية، وبالرغم من أن الإثنوغرافي يهتم بالدراسة الوصفية للمجتمعات البدائية والمتحضّرة، والأنثروبولوجي الاجتماعي يهتم بالتحليل البنائي أو التركيبي للمجتمعات البدائية، فإن هناك ارتباطا وتداخلا وثيقا بين هذه العلوم الثلاثة بخصوص الدراسة العلمية التي يقومون بها.

فبعد تجميع المادة الثقافية تحت علم الإثنوغرافيا يأتي دور الإثنولوجيا التي تمثل الخطوة الثانية من أجل دراسة خصائص الشعوب اللغوية والثقافية والسلالية وتحليلها ومقارنتها بهدف رصد أوجه الاختلاف والاتفاق بين الثقافات أو الوصول إلى تصورات نظرية.

عندما يرتبط ويتكامل كل من علم الإثنوغرافيا وعلم الإثنولوجيا يتشكل لنا علم الأنثروبولوجيا، وهذا الأخير الذي عدّ من أحدث العلوم وأشملها التي اتخذت الانسان مادة لدراستها من كل الجوانب لأنه المخلوق الوحيد من

الأنواع الحيوانية الذي يصنع الثقافة ويتميز عنها جميعا. ومن هنا كانت أهمية الدراسات الأنثروبولوجية والإثنولوجية والاثنوغرفية في تحديد صفات الكائنات البشرية، وإيجاد القواسم المشتركة فيما بينها. ويوجد الكثير من النقاط المشتركة بين هذه العلوم من خلال دراسة الثقافات الحية والتي يمكن التعرف إليها بالتعايش مع أهلها، كما تدرس الثقافات المنقرضة من خلال البقايا الأثرية المكتوبة والوثائق المدونة. وفيما يلي تحديد العلاقة بين هذه العلوم الثلاث في كل من الولايات المتحدة الأمريكية و انجلترا.

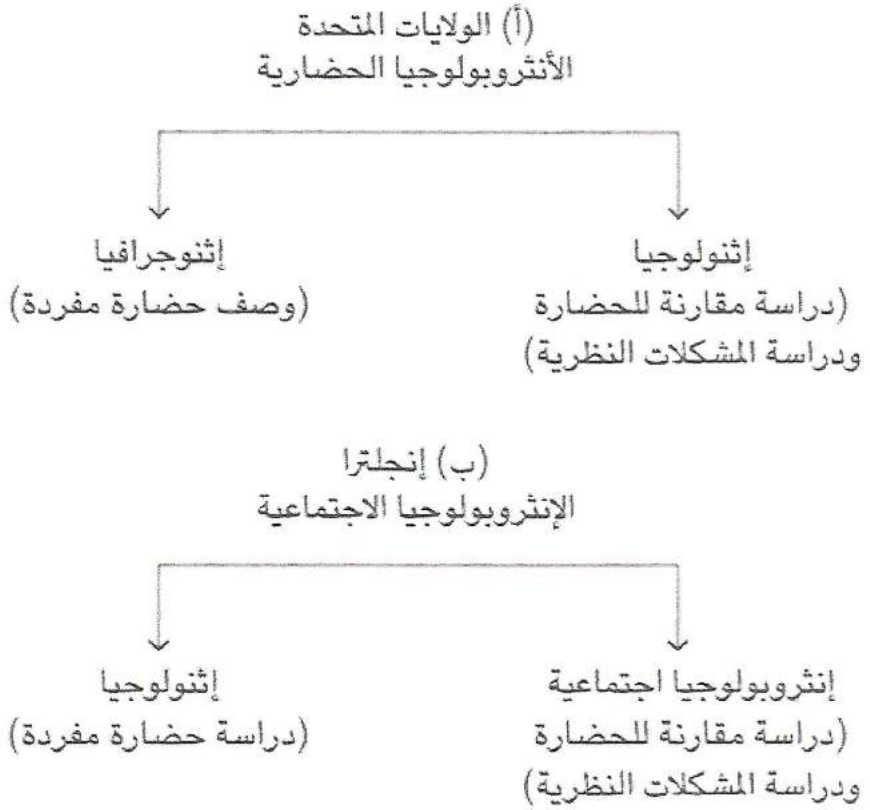

الشكل رقم (3) يبين العلاقة بين الاثنولوجيا والانثروبولوجيا والاثنوغرافيا

وكخلاصة لما سبق يمكن تحديد العلاقة بين العلوم الثلاثة على النحو الآتي:

-الإثنوغرافيا: الرصد والوصف.

-الإثنولوجيا: التحليل والمقارنة.

-الأنثروبولوجيا: استنباط القواعد والقوانين.

رابعا: الإثنو–ميتودولوجيا Ethnomethodology

مفهوم الاتجاه الإثنو–ميتودولوجي (منهج الجماعة)

يتصف هذا الاتجاه مثل غيره من الاتجاهات الظاهراتية بموقفه النقدي والرافض للاتجاه الوضعي في علم الاجتماع، وقد ظهر هذا المصطلح (الإثنوميتودولوجيا) عام 1967م ، حينما نشر العالم الأمريكي " هارولد جارفنكل" كتابه بعنوان "دراسات في الإثنوميتودولوجيا" حيث صاغ " جارفنكل" هذا المصطلح متأثرا بالفلسفة الظاهراتية (فلسفة الظواهر)، ومن ثم فقد نحض المنظور الإثنوميتودولوجي على أسس فلسفية.

يتكون المصطلح Ethnomethodology من مقطعين : المقطع الأول: Ethno التي تعني الشعب أو الناس أو القبيلة أو السلالة، أما المقطع الثاني methodology فيشير إلى المنهج أو الطريقة التي يستخدمها الناس في صياغة وتشكيل الحقيقة الاجتماعية، مما يشير إلى أن المنظور الإثنوميتودولوجي يهتم أساسا بتطوير مناهج البحث، ويدفعنا إلى البحث عن هذه المناهج المستخدمة في الدراسات الإثنوميتودولوجية.

وقد قام " جارفنكل" بتعريف المصطلح " الإثنوميتودولوجيا" على أنه يعني " استقصاء الخصائص العقلية لمجموعة التعبيرات والأفعال التي تتم أثناء الحياة اليومية" وبتعبير آخر يشير هذا المصطلح إلى " دراسة المعاني التي يعطيها الناس لكلماتهم وأنماط سلوكهم". كما حدد " جارفنكل" المقصود بالإثنوميتودولوجيا بقوله: " إن الدراسات الإثنوميتودولوجية تحلل أنشطة الحياة اليومية تحليلا يكشف عن المعنى الكامن خلف هذه الأنشطة وتحاول أن تسجل هذه الأنشطة وتجعلها مرئية ومنطقية وصالحة لكل الأغراض العلمية". وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن الطرق التي يسلكها أعضاء المجتمع خلال حياتهم اليومية لتكوين نوع من الألفة من خلال الأحداث والوقائع.

بالإضافة إلى تحديد مفهوم "الإثنوميتودولوجيا" نجد أن أصحاب هذا المنظور قد قاموا بتطوير بعض المفاهيم الأساسية مثل مفهوم "الفعل المنعكس" ومفهوم " البيئة المرتبطة بالمعنى". ويشير مفهوم " الفعل المنعكس" إلى أن كثيرا من أنماط التفاعل التي تحدث بين أعضاء المجتمع تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية التي قاموا بتشكيلها في مواقف محددة، ونجد أن كثيرا من أنماط التفاعل بين أعضاء المجتمع تعتبر أفعالا منعكسة، فالكلمات والإشارات والإيماءات التي نستخدمها أثناء عملية التفاعل تهدف إلى المحافظة على رؤية معينة للحقيقة الاجتماعية وتستخدم في تشكيل وتفسير وإعطاء المعاني للعالم الاجتماعي.

أما مفهوم " البيئة المرتبطة بالمعنى" فيشير إلى التفاعل المتبادل بين أعضاء المجتمع يتضمن معان تدركها عقولهم مباشرة، وهي معان تفوق دلالاتها ومغزاها، فالإشارات أو الكلمات أو العبارات التي ترسل أو تستقبل أثناء عملية التفاعل بين أعضاء المجتمع يكون لها عدة معان ترتبط بمواقف معينة أو ظروف بيئية معينة.

يرى أصحاب هذا المنظور أنه يجب إثارة التساؤلات حول الأبنية الاجتماعية القائمة، فكثيرا من القواعد والمعايير الاجتماعية ليست معروفة بشكل واضح لأعضاء المجتمع، ومع ذلك فهي تستخدم كأشياء مسلم بها، ومن ثم لابد من إثارة بعض التساؤلات التي تكشف عن الطرق والإجراءات التي يستخدمها أعضاء المجتمع لجعل أفعالهم وأهدافهم وخبراتهم الماضية قابلة للتفسير والفهم من قبل الأعضاء الآخرين في المجتمع.

2-هدف المنظور الإثنوميتودولوجي

يهدف المنظور الإثنوميتودولوجي إلى وصف كيفية قيام أعضاء المجتمع أثناء تفاعلهم في الحياة اليومية بصياغة المفاهيم حول المواقف المختلفة، وكيفية قيامهم بتشكيل الحقيقة الاجتماعية، ويرى أصحاب هذا المنظور أن تشكيل الحقيقة الاجتماعية تعد عملية مستمرة من التفسير، وذلك نظرا لأن موافقة أعضاء المجتمع حول تعريف مواقف الحياة تعدّ عملية متغيرة (ديناميكية) وغير ثابتة، ومن ثمّ فإن أصحاب المنظور الإثنوميتودولوجي يضيفون إلى الاتجاهات النظرية الأساسية في علم الاجتماع واهتمامهم بدراسة التغير الاجتماعي على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغيرة النطاق.

ويتضح مما سبق أن المنظور الإثنوميتودولوجي يؤكد أن الواقع الاجتماعي في حالة تغيّر دائم وأنه يمكن دراسة هذا التغيّر على مستوى الوحدات الاجتماعية الصغرى دون الوحدات الكبرى، ونجد أنّ هذا المنظور يحثّ الأفراد على تغيير ذواتهم بدلا من تغيير النظام الاجتماعي القائم. فالاتجاه الإثنوميتودولوجي هدفه دراسة التأويلات والدلالات السوسيولوجية التي يعطيها الأفراد لكلماتهم وإشاراتهم وإيماءاتهم خلال المحادثات اليومية الخاصة بين الوحدات الاجتماعية الصغرى. وقد اهتم " جارفنكل" بالمعنى وكيف يتم اكتشافه وقد بيّن أنّ:

-المحادثات اليومية تنقل معان أكثر مما تحمله من كلمات مباشرة.

-المحادثات تفترض محتوى ذات دلالات مشتركة.

-الفهم المشترك الذي يوافق أو ينتج عن المحادثات يشمل عملية مستمرة من التأويل.

-التبادل والتفاعل في الشؤون اليومية تتصف بمنهجية وخطة وبالتالي بخاصية العقلانية.

من رواد هذا المنظور: هارولد جارفنكل، أيرون سيكوريل، هارفي ساكس، موهان وديلكنز.

موضوعاته وقضاياه الأساسية: دراسة الواقع الروتيني اليومي، يذكر "فيلمر" Filmer أن الاتجاه الإثنوميتودولوجي يسعى إلى دراسة النشاطات المألوفة، تلك التي يقوم بها الأفراد في حياتهم اليومية والتي تكون لها دلالات سوسيولوجية.

3-المناهج المستخدمة في الدراسات الإثنوميتودولوجية

نجد أن الباحث "جاردفنكل" وزملاءه من الباحثين قد قاموا بإجراء بعض الدراسات الإمبريقية التي تكشف عن المناهج المختلفة التي يمكن أن تكشف عن المناهج المختلفة التي يمكن أن يستعين بها الباحث الإثنوميتودولوجي لكي ينفذ إلى مواقف الحياة اليومية، ويتعرف على أفكار وقواعد السلوك المبحوث.

وقد انتقد أصحاب المنظور الإثنوميتودولوجي طرق وأدوات البحث المستخدمة حاليا في علم الاجتماع مثل: المسح الاجتماعي والمقابلات، كما رفضوا استخدام صحيفة الاستبيان كوسيلة لجمع البيانات الكمية التي تتطلبها الدراسات الإثنوميتودولوجية، وذلك على أساس أن مثل هذه الأساليب الكمية تفصل بين الباحث وموضوع دراسته، وتتضمن معرفة سابقة بالواقع يفرضها الباحث فرضا على أداة بحثه، بالإضافة إلى أن موقف التفاعل بين الباحث والمبحوث يؤثر على حجم ونوعية البيانات التي يتم الحصول عليها.

ولكي يتعرف الباحث الإثنوميتودولوجي على أفكار وقواعد سلوك المبحوث دون أي تدخل من طرف الباحث، يرى أصحاب هذا المنظور أنه يمكن استخدام طريقة الملاحظة بالمشاركة كما يستخدمها أصحاب منظور التفاعلية الرمزية وذلك بالإضافة إلى استخدام بعض المناهج مثل (المنهج شبه التجريبي) الذي يطلق عليه (التجربة الإثنوميتودولوجية) والمنهج الآخر الذي يطلق عليه " جارفنكل" (المنهج التوثيقي) وهو المنهج الذي يستخدمه كل من الباحث والأفراد العاديين في تفسير سلوكهم أثناء تفاعلهم في المواقف المختلفة للحياة اليومية.

4-أهم الانتقادات التي وجّهت للاتجاه الإثنوميتودولوجي ومناهجه:

واجه هذا المنظور العديد من الآراء الناقدة لما يحمله من أفكار، فالمناهج التي يستخدمها المنهج الإثنوميتودولوجي في دراساته تشير إلى أنه يعتبر متحيزا للأسلوب الكيفي. ويرى عالم الاجتماع الأمريكي " آلفن جولدنر" أن "جارفنكل" يدعو إلى نوع من الفوضوية، فالمنهجية الشعوبية دعوة إلى تغيير الذات بدلا من تغيير النظام أو هو مواجهة فردية ومقاومة غير عنيفة للوضع القائم.

المحور الثاني: التوجه الإثنوغرافي في الدراسات الإعلامية

أولا: استخدام المنهج الإثنوغرافي لدى دافيد مورلي

لقد كثر الحديث عن المناهج النوعية (الكيفية) بوصفها بديلا أكثر ملاءمة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، وبدأت هذه المناهج تجد قبولا في المؤسسات الأكاديمية بصورة عامة، يأتي في مقدمة هذه البحوث التي حضيت بالاهتمام والنقاش "البحث الإثنوغرافي" ، إذ بدأ التوسع الكبير في استخداماته في الثمانينات في المجالين الاجتماعي والتربوي، وأتاحت هذه المناهج البحثية النوعية (الكيفية) ارتياد آفاق جديدة في البحث الاجتماعي ودراسته الكثير من القضايا الاجتماعية والتربوية. وعليه قبل الحديث عن استخدام المنهج الإثنوغرافي لدى دايفد

مورلي يجب أولا تحديد معنى كل من البحث الإثنوغرافي وذكر أهم خصائصه وعيوبه، والتطرق لأهم خطوات المنهج الإثنوغرافي.

1-مفهوم البحث الإثنوغرافي

يعرّف البحث الإثنوغرافي بأنه طريقة أو أداة لفهم أساليب وطرق عيش مجتمع ما في الحياة اليومية، وذلك من خلال معرفة أفكار أعضائه ومعتقداتهم وقيمهم وسلوكاتهم، وما يصنعوه من أشياء وكيف يتعاملون معها، ويتم ذلك عن طريق الملاحظة بالمشاركة ومعايشة الظاهرة، فالبحث الاثنوغرافي يركز على وصف السياق دون محاولة من الباحث فرض نظامه أو معتقداته على الموقف البحثي، ويقوم البحث الاثنوغرافي على افتراض السلوك الانساني والذي يتأثر تأثرا كبيرا بالبيئة التي يحدث فيها، وعليه فالفهم الحقيقي للسلوك يتطلب منا فهم تلك البيئة أو السياق بصورة متكاملة ، لذا فإن جمع البيانات والمعلومات يجب أن يجرى في موقعها وسياقاتها الطبيعية ، حيث تتم عملية تفسير البيانات في إطار السياق ذاته، وكما أن تعميم النتائج ليس هدفا، فالمهم هو الوصف الدقيق والمتعمق للموقف موضوع الدراسة.[1]

يتضمن البحث الإثنوغرافي فكرة البحث الميداني المباشر الذي يقوم به الباحث في سياق علاقة معايشة في الميدان، فالبحث الإثنوغرافي إذا هو بحث اجتماعي يتميز بالانخراط العميق للباحث الإثنوغرافي في حياة الناس لفترة من الزمن يراقب ما يحدث ويسمع ما يقال، يسأل الأسئلة ويجمع ما يمكن من البيانات بهدف تسليط الضوء على قضايا محورية في البحث. كما يعتمد البحث الإثنوغرافي على الوصف والتحليل باستخدام الكلمة والعبارة عوضا عن الأرقام والجداول الإحصائية، وتتركز أهميته في كونه يقدم لنا وصفا مكثّفا للظاهرة محل الدراسة، ويسعى البحث الإثنوغرافي إلى الكشف عن بعض الأفكار والسلوكات غير المتوقعة (غير الظاهرة) من خلال دراسة الظاهرة اعتمادا على مشاركة الباحث المتعمقة لمجتمع البحث أو الدراسة، ولكونه الأداة الرئيسية في جمع المعلومات وتصنيفها وتحليلها.

---

[1] فتيحة بوغازي. **اثنوغرافيا الانترنت**، مقال منشور على موقع: Http : www.audience-studies.over-blog.com

تم تصفح الموقع بتاريخ: 2021/10/10 على الساعة 12:38

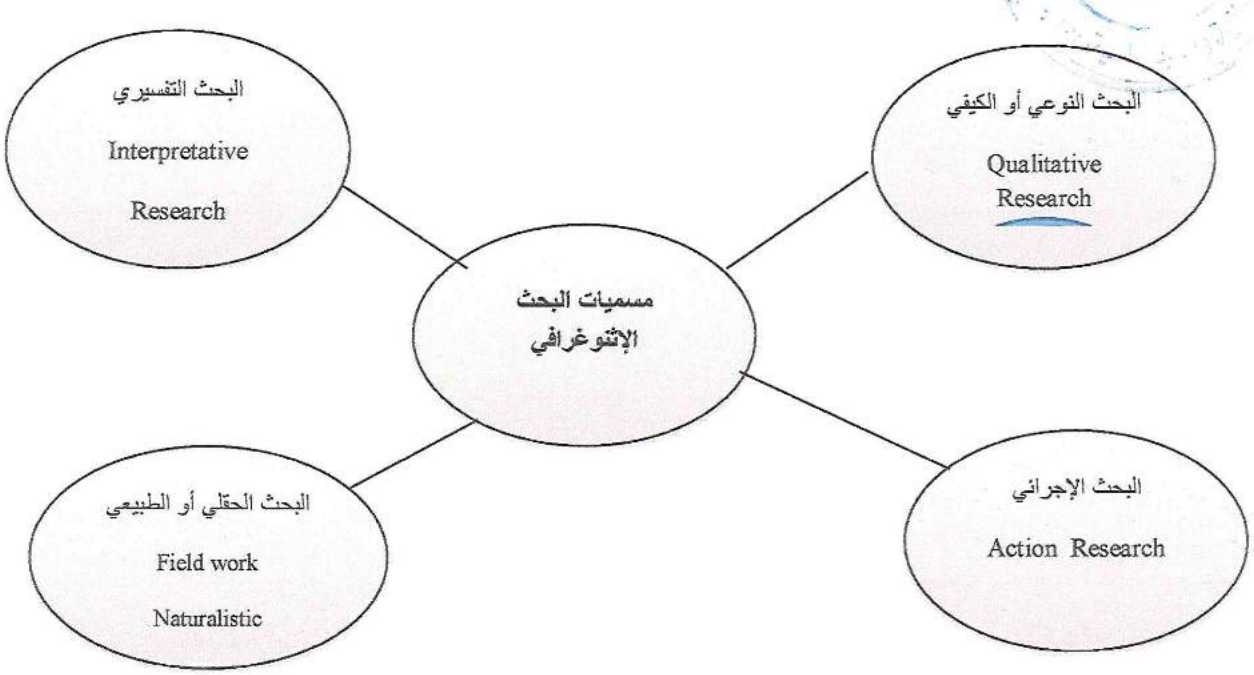

الشكل (4): يبين مسميات البحث الإثنوغرافيا

كما يقوم على مفهوم مشاركة أو إشراك المبحوثين بطريقة مباشرة في الدراسة، وتقديم وجهة نظرهم بصورة شمولية وفاعلية، فمجريات البحث ليست أسئلة مشتقة من رؤية الباحث وخلفياته الثقافية والفكرية، بل على العكس من ذلك المتوقع من الباحث الإثنوغرافي معايشة حقل مجتمع الدراسة بصورة متفاعلة ومتكاملة (عن طريق الملاحظة بالمشاركة) ويتولى نقل ووصف ما يشاهده ويسمعه من خلال تسجيله للملاحظات والآراء والأفكار والمقترحات والرؤى من داخل ميدان الدراسة. وحسب "مارسال موس " " Marcel Mause " لدراسة أي مجتمع ينبغي دراسة ما يلي:

أ/ مورفولوجيا اجتماعية: فكل مجتمع يتكون من سكان، ودراسة السكان في الميدان يطلق عليه "مورفولوجيا اجتماعية" التي تحتوي على ديموغرافيا وجغرافيا الإنسان.

ب/ فيزيولوجيا اجتماعية: تدرس الظواهر في حركيتها وتطورها واستمراريتها سواء كانت: تقنيات، جماليات، اقتصاد، قانون، الدين، العلوم، الهندسة المعمارية.

ج/ ظواهر اجتماعية: تتمثل في: اللغة، علم السلوك، أو الأخلاقيات الجماعية، ظواهر وطنية، ظواهر دولية...الخ.

وفي ظل التطورات الحاصلة في تكنولوجيا الإعلام والاتصال عرفت الدراسات الإعلامية خاصة منها المتعلقة بتأثير وسائل الإعلام على الجمهور هي الأخرى طفرة نوعية، فأمام عجز الدراسات والبحوث الإعلامية الإمبريقية الكمية في دراسة وتفسير السلوكيات الاتصالية للمتلقي، وكيفية تفاعله مع الرسائل الإعلامية التي يتلقاها من

مختلف الوسائل الإعلامية التقليدية والوسائط الحديثة. بدأ استخدام المقترب الإثنوغرافي في دراسات الجمهور المستخدمين، فكانت البداية الأولى مع الأبحاث التي أجراها الباحث "دايفد مورلي" " David Morley " في الثمانينات حول الاستعمالات الأسرية للتلفزيون وما طرحه من مفاهيم تتعلق بسياق المشاهدة وهذا ما سنتطرق إليه بالتفصيل في العناصر اللاحقة.

فعند القيام بدراسة إثنوغرافية حول الجمهور أو مستخدمي الوسائط الجديدة، فإن الباحث يقع في حدود البحث الكيفي السوسيولوجي لمجرد الفهم والمشاركة في التغيير نحو الأفضل، وبالتالي فإنه يختلف في المنهجية والأهداف عن الأبحاث الكمية، فالباحث الإثنوغرافي عند دراسته للجمهور أو المستخدمين يقوم بمعايشتهم لفترة من الزمن، وتفسير سلوكياتهم ومعتقداتهم وأنماط تعرضهم للوسيلة الإعلامية أو الاتصالية سواء كانت تقليدية (صحف، إذاعة وتلفزيون وسينما) أو إلكترونية (الأنترنت) بهدف توضيح كيفيات الاستخدام، وكذلك الاتجاهات والتمثلات الثقافية والإدراك والدوافع الخاصة بالجمهور والمستخدمين وكذلك التأويلات والتفسيرات المختلفة التي يعطيها الأفراد عند استخدامهم لها.

ويقصد بالاثنوغرافيا "وصف دقيق لكل ما نراه أو نسمعه"، كما عرفت بأنها "فن وعلم الوصف لمختلف فصول الحياة" تتطلب الأبحاث الإثنوغرافية آليات معينة كتدوين المشاهدات والملاحظات أو استخدام المقابلات العميقة مع المبحوثين من أجل جمع البيانات، وتتم عملية جمع المعلومات وتحليلها. وأصبحت هذه الأبحاث من أهم الأبحاث الكيفية بعدما كانت الأبحاث الكمية مسيطرة على دراسات الجمهور، والتي همشت في مجملها أهمية المتلقي ومختلف الممارسات الفردية.

ومن أهم الخصائص التي يتميز بها البحث الإثنوغرافي نذكر ما يلي:

- يعتمد على الملاحظة المباشرة للباحث.

-عدم وجود فرضيات سابقة.

-يختبر ما يحدث فعليا.

- يعتمد على جمع مكثّف للبيانات يمتد لفترة زمنية قد تطول.

- استخدام المقابلات الموجهة وغير الموجهة مع المبحوثين لجمع البيانات والمعلومات.

- ربط البيانات والوقائع بالمفاهيم واستخلاص النظريات والمعارف من الميدان.

- تفسير الظواهر الاجتماعية من منظور داخلي (داخل الجماعة) مما يسمح للباحث بأن يكون لديه رؤية واضحة للحياة اليومية لأفراد هذه الجماعة.

– من خلال الوصف والتفسير يمكن للباحث معرفة الظواهر الاجتماعية وأهم الاختلافات الموجودة في الثقافة الواحدة وبينها وبين الثقافات الأخرى.

–ربط النتائج المستمدة من دراسة معينة بسياق أكبر.

ومن خلال ما ذكر سابقا يمكن تلخيص أهم مميزات وخصائص البحث الإثنوغرافي على الشكل الآتي:

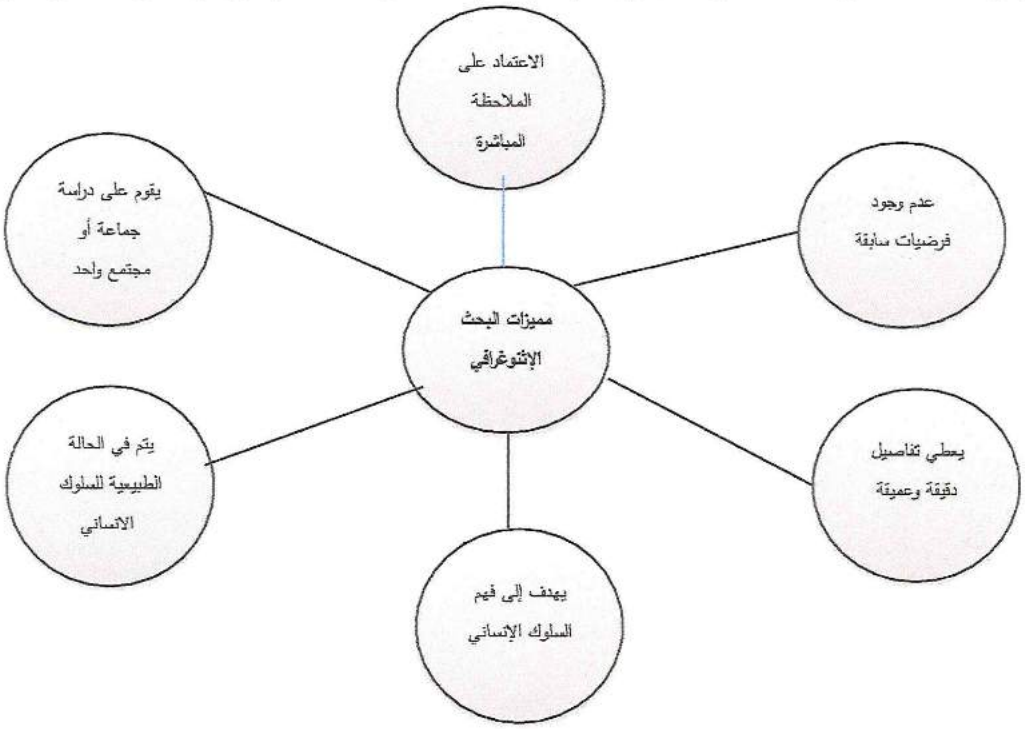

الشكل رقم (5) يبين مميزات البحث الاثنوغرافي

نواحي القصور في البحث الإثنوغرافي:

على الرغم من إمكانية الباحث الإثنوغرافي من معايشة مجتمع الدراسة بصورة متفاعلة ومتكاملة عن طريق الملاحظة بالمشاركة والمقابلة بنوعيها والتصوير الفوتوغرافي وغيرها من الأدوات البحثية الإثنوغرافية، وتمكنه من نقل ووصف ما يشاهده ويسمعه من خلال تسجيل الملاحظات والآراء والرؤى من داخل الميدان، إلاّ أنّ البحث الإثنوغرافي تعترضه عدة صعوبات نذكر أهمها فيما يلي:

–التطبيق العملي للبحوث الإثنوغرافية يتطلب تدوين بيانات هائلة ودقيقة خلال فترة زمنية طويلة بواسطة أشخاص مدربين تدريبا عاليا على أساليب الملاحظة، إلا أنه بالنسبة للنتائج فإنه من الصعب تحليلها أحيانا نظرا إلى كمية المعلومات والبيانات.

-حجم العينة كثيرا ما يكون جماعة أو مدرسة أومؤسسة أو مجموعة أسر، لذلك فإن النتائج كثيرا ما تكون خاصة بالعينة فقط.

-يصعب على الباحث الإثنوغرافي التعامل مع المجتمع محل الدراسة من حيث: اللغة، العادات والتقاليد، الدين، الجنس خاصة في المجتمعات التي لديها الفصل بين الجنسين.

-خلفية الباحث الاجتماعية والدينية قد لا تسمح له بالمشاركة في بعض النشاطات التي لا تتناسب مع دينه وتقاليده وقيمه.

-وجود الباحث قد لا يجعل الناس يتصرفون بتلقائية كما هم في حياتهم اليومية.

-وجود الباحث لفترة زمنية طويلة قد يجعله يتعاطف مع المجتمع ويتخلى عن الموضوعية.

-البحث الإثنوغرافي يتطلب مهارة عالية من الملاحظة والدقة والتسجيل وهي مسؤولية كبية بالنسبة للباحث الذي يتعين عليه نقل المشاهد والسلوكيات كما هي في الواقع دون زيادة أو نقصان.

والشكل الآتي يوضح لنا ما ذكرناه سابقا:

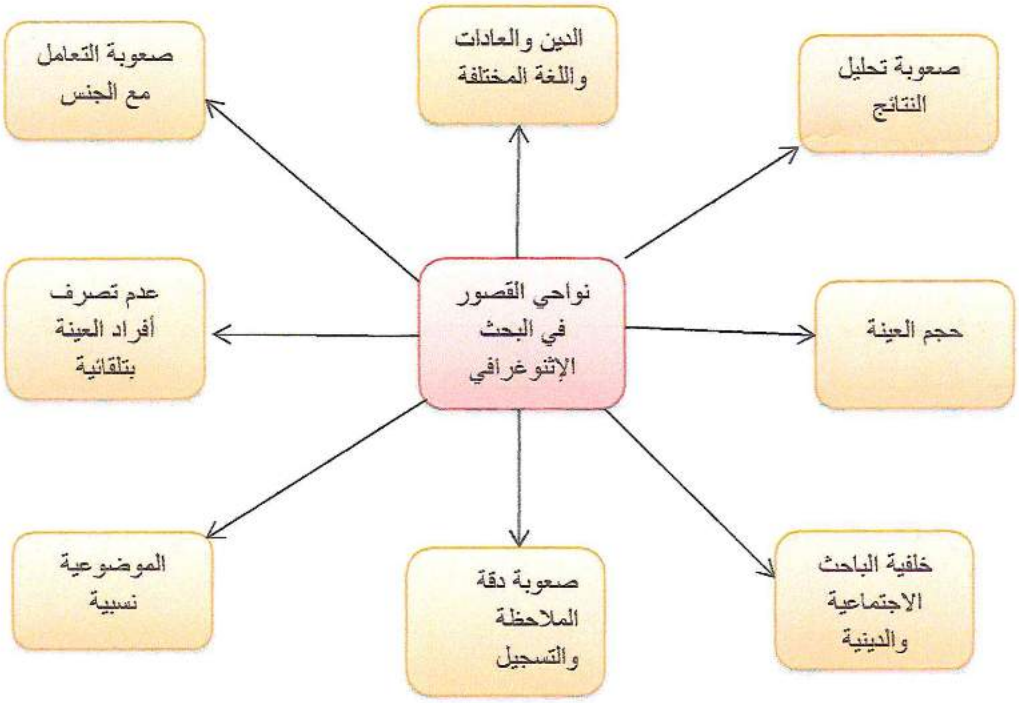

الشكل رقم (6) يبين نواحي القصور في البحث الاثنوغرافي

– المنهج الإثنوغرافي وخطواته

يقصد بالمنهج الإثنوغرافي الدراسة الميدانية العلمية للظواهر الاجتماعية وذلك عن طريق اتصال الباحث بموضوع البحث اتصالا مباشرا يعيش فيه بين الجماعات المراد دراستها ويتعلم لغة الأهالي لكي يوثق صلته بهم.

إن المنهج الاثنوغرافي القديم لم يكن هو المنهج العلمي الأمثل حيث أن المقارنة فيه لم تجر بطريقة علمية متميزة، فالدراسات الإثنوغرافية الأولى بدأت بالرحلات ومحاولة مقارنة المجتمعات مع بعضها البعض والتي أنشأت ما يسمى ب"التتبع التاريخي" للظواهر الاجتماعية أو ما يسمى بالنظرية التطورية وذلك عن طريق الاكتفاء بالقراءات الواسعة وجمع المعلومات المدونة بواسطة الرحالة والمبشرين والتجار ولم يقم أي باحث أنثروبولوجي بالنزول إلى الميدان بنفسه لجمع المعلومات وتدوين الملاحظات وهذا كله أشرنا إليه سالفا أثناء تطرقنا إلى مفهومي الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا.

وتعدّ دراسة " راد كليف براون" لجزر " الأندمان" أول دراسة ميدانية مهمة، تلتها دراسة العالم البريطاني الشهير ورائد الدراسات الميدانية " مالينوفسكي" لجزر " التربورياند" والتي استغرقت أربعة سنوات، إضافة إلى دراسة الباحث الأمريكي "لويس مورغان" لمجتمع نيويورك نهاية القرن التاسع عشر.

3–خطوات المنهج الإثنوغرافي

يقوم البحث الإثنوغرافي على توجد الباحث بميدان البحث في المجتمع المدروس تواجدا مستمرا طول فترة البحث لإجراء دراسته متبعا المنهج الإثنوغرافي الذي تتمثل أهم خطواته فيما يلي:[1]

–اختيار مشروع إثنوغرافي (اختيار الحالة أو الظاهرة محل الدراسة).

–تحديد نوعية الأسئلة وطرحها.

–جمع البيانات والمعلومات.

– عمل سجل للبحث الإثنوغرافي.

– تحليل البيانات وتفسير المعلومات.

– كتابة التقرير النهائي للدراسة.

ويمكن تلخيص الخطوات في المخطط الآتي:

---

[1] فتيحة بوغازي

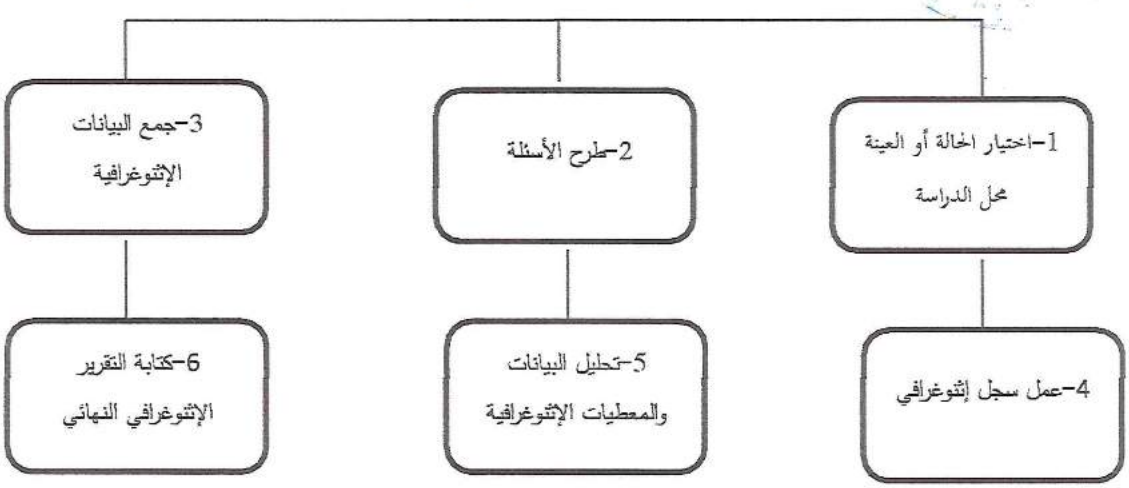

الشكل رقم (7) يبين خطوات منهج البحث الاثنوغرافي

ولا يمكن أن تنجح هذه الخطوات إلاّ إذا راعى الباحث الإثنوغرافي ما يلي:

أ/ الملاحظة: Observation تعد من أهم طرق البحث الإثنوغرافي، والملاحظة تعني ملاحظة الباحث للمجتمع المدروس في التعرف على صفات وخصائص الحالات المدروسة من خلال وصفه لها. وأعمق منها منهجيا "الملاحظة بالمشاركة" " Observation Participation " إلاّ أنها عملية غير ممكنة كما يرى البعض، هنا الاعتراض يكون بسبب أن الباحث يكون غريبا عن المجتمع الذي يدرسه، ما نقصده هو أن الباحث الإثنوغرافي غالبا ما يتأثر بمنطلقاته النظرية ومواقفه الإيديولوجية وتكوينه الذهني والنفسي والتي لابد أن تؤثر في نتائج دراسته.

كذلك إن " الملاحظة بالمشاركة" تثير أيضا تستؤلات حول موضوعية المادة التي يحصل عليها الباحث في دراسته. وقد ارتبط هذا التساؤل باختلاف نتائج الدراسة الإثنوغرافية لقرية واحدة وهي (قرية نيوزلاند) المكسيكية من قبل باحثين مختلفين استخدما نفس الأداة وهي (الملاحظة بالمشاركة). ففي عام 1920 درس الأمريكي " روبرت رادفيلد" هذه القرية المكسيكية، وبعد أربعة عشر عاما وبالتحديد سنة 1934 ذهب الأمريكي " أوسكار لويس" إلى القرية نفسها لدراستها إثنوغرافيا، مع العلم أن الباحث "لويس" قد اطلع على نتائج دراسة " رادفيلد" وقد احتار في أمرها لأنها جاءت متناقضة تماما لملاحظاته الشخصية، لأن "رادفيلد" قد أعطى صورة جيدة عن الحياة في تلك القرية المكسيكية، حيث وصف أفراد المجتمع بأنهم سعداء وهادئون، في حين وجد " أوسكار لويس" صورة المجتمع مختلفة تماما، فالناس كانوا غير سعداء وغير متعاونين وعلاقاتهم الاجتماعية ضعيفة.

قد يذهب البعض إلى القول بأن سبب اختلاف النتائج هو تحولات جذرية في القرية خلال فترة أربعة عشر سنة، إلا أن التحليل الدقيق لهذا الموقف قد بين أن الاختلاف في النتائج كان انعكاسا لاختلاف في المنطلق الفكري والنظري لكل منهما.

ب/ الوصف: Description وهي العملية التي تعد من أهم خطوات البحث الإثنوغرافي الذي يقوم به الباحث في دراسته لجماعة أو مجتمع معين، حيث يقوم بوصف ما لاحظه باستخدام الملاحظة بالمشاركة وصفا أمينا دقيقا وموضوعيا لما يحدث، وأن لا يزيد شيئا من عنده أو ما يمكن أن ينسجم مع أهوائه. فعملية الوصف عملية متعبة وشاقة بالنسبة للباحث الإثنوغرافي لأنه مطالب أن يكون دقيقا جدا فيما يجمعه ويدونه من معلومات أو معطيات.

ج/ التحليل: Analyse بعد جمع المعلومات يحاول الباحث ربط العمليات مع بعضها البعض، بحيث نجد أنه هناك علاقات وصلات بين هذه المعلومات، ثم نقوم بتحليل محتوى العلاقات وسيرورتها، والبحث عن درجة الانسجام والتناقض بينها. هنا يعمد الباحث الإثنوغرافي إلى تحليل كل فئة من هذه الفئات إلى مجموعات صغيرة، أي: ترتيب هذه الفئات وتنظيمها وفي هذه المرحلة من الدراسة الإثنوغرافية تبدأ اللمسات الإثنولوجية واضحة بحيث يعمل الباحث على استظهار نقاط البناء والتفكيك للظاهرة والمقارنة من خلال ما التزم به من معطيات خارجية.

بعد تحليل هذه الفئات يقوم الباحث في الكشف عن الآثار المسببة للظاهرة المدروسة، مع اخضاعها للفحص والاختبار الدقيق، ثم تأتي عملية "التركيب" لهذه الفئات والعمليات من أجل الوصول إلى نتيجة مرضية، ومما ينبغي هنا ذكره أن مرحلة التحليل تعد مرحلة وسطى بين "الوصف" و"التنظير" الذي لا يظهر بشكل ملموس في الإثنوغرافيا.

الأسرة كوحدة تحليل في البحث الإثنوغرافي:

كانت الأسرة ولا تزال محل اهتمام الكثير من المتخصصين في مختلف التخصصات، خاصة العلوم الانسانية والاجتماعية نظرا لأهميتها، واعتبارها الخلية الأولى والرئيسية التي يتكون منها المجتمع، فهي " مجموعة من الأفراد يتفاعلون مع بعضهم البعض، وهي تعتبر الهيئة الأساسية التي تقوم بعملية التطبيع الاجتماعي للجيل الجديد"[1] وهي أول وحدة اجتماعية عرفها الانسان في حياته من أول أسرة زواجية والتي ضمت (آدم وحواء) وانبثاق أولى الجماعات الأسرية التي تطورت عبر الزمن إلى تنظيمات اجتماعية عديدة مختلفة تنوعت فيها التنظيمات الأسرية في بنياتها وأحجامها ووظائفها وأدوارها. فالأسرة هي "تجمع طبيعي بين أشخاص جمعتهم روابط فألفوا وحدة معنوية ومادية، وهي أصغر الوحدات الاجتماعية التي يعرفها المجتمع الانساني" وقد عرفها أوجست كونت بأنها "

[1] محمد حسن. **الأسرة ومشكلاتها**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص 02

منظومة علاقات وروابط بين الأعمار والأجناس"[1] وإن نطاق الأسرة قد تطور من الأوسع إلى الواسع ثم إلى الضيق فالأضيق، وكان في جميع الأوضاع السابقة قائما على مجرد أسس وقواعد موضوعة من طرف المجتمعات وأقرتها نظمها على أساس صاغتها الغرائز البشرية أو صلات الدم".

ولقد حظي موضوع الأسرة منذ القدم باهتمام المفكرين، إلا أن الدراسة العلمية للأسرة لم تبدأ إلا منذ القرن التاسع عشر على يد علماء الأنثروبولوجيا والاثنوغرافيا وعلماء الآثار الذين اهتموا بدراسة الأسرة في الثقافات البدائية، وفي الحضارات القديمة ثم شهدت بعد ذلك العديد من التطورات. ويمكننا تلخيص مراحل تطور دراسة الأسرة كما يلي[2]:

المرحلة الأولى: وتمتد حتى منتصف القرن التاسع عشر، وتميزت بسيطرة الفكر العاطفي والخرافي والتأملي على التراث الشعبي، وكتابات الأدباء والتأملات الفلسفية ومن أدباء هذا العصر: شكسبير، براوتنغ، وفي مجال الدين: كونفوشيوس، سان أوغسطين، وفي علم الفلسفة: أفلاطون، أرسطو وجاك ليك وغيرهم.

المرحلة الثانية: وتمتد من منتصف القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين، وتميزت بتطبيق الأفكار التطورية على ميدان الأسرة والزواج، وقد أوحد أفكار شارل دارون إلى المفكرين الاجتماعيين أنه من الممكن أن تتطور أشكال الحياة الاجتماعية ونظمها بالطريقة نفسها التي تتطور بها الكائنات البيولوجية ومن أعلام هذه المرحلة نذكر: سبنسر، باخوفين وهنري، مان ولويس مورغان وتايلور وغيرهم.

المرحلة الثالثة: تمتد هذه المرحلة خمسين عاما أخرى حتى منتصف القرن العشرين، وفيها انتقلت دراسة الأسرة من الماضي إلى الحاضر، وتميزت بتطبيق المناهج العلمية في دراسة الظواهر الاجتماعية، وركزت هذه المرحلة على دراسة العلاقات الداخلية بين أفراد الأسرة متأثرة في ذلك بعلم النفس الاجتماعي، في الوقت الذي ظلت فيه دراسة المشكلات الاجتماعية تشغل خلال هذه الفترة مكانة مهمة، ومن أهم دراسات هذه المرحلة: مؤلفات كولي وبيرغس.

المرحلة الرابعة: هي الممتدة الآن، وأهم ما ميز هذه المرحلة تزايد الاهتمام بالنظرية، وتعميق الدراسات الكمية، ولكن بطريقة أكثر منهجية، علاوة في محاولات جادة لتجميع البحوث التي أجريت في الماضي وتقويمها وتحديد المدارس الفكرية المختلفة أو الإطارات المرجعية للنظرية التي استخدمت في دراسة الأسرة، وتظهر أهمية دراسة الأسرة في أن علم الاجتماع لا يقوم بدراستها بمثابة وحدة منعزلة أو مجموعات أسرية متفرقة، بل إنما يدرسها بقصد البحث عن قوانين عامة لعناصرها.

---

[1] خليل أحمد خليل. **المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع**، دار الحداثة، مصر، 1984، ص 60.
[2] محمد الجوهري وآخرون. **ميادين علم الاجتماع**، دار المعارف، القاهرة، ص ص 242-244.

وهذه المرحلة شهدت الكثير من مظاهر التحول التكنولوجي الذي شكل اختراع وسائل الإعلام والأقمار الصناعية وشبكات المعلومات الحديثة، مما جعل الباحثين في مجال علوم الاعلام والاتصال يصفون القرن العشرين بأنه عصر الاتصال والمعلومات الذي غير في حياة الأفراد داخل الأسرة ومهد لأنماط جديدة من العلاقات الاجتماعية والسلوكيات، كما أحدثت آثارا تربوية وثقافية على أفراد الأسرة، فبالرغم من التطور الحاصل في تكنولوجيا الاعلام والاتصال وظهور الوسائط الجديدة، ونظرا للتوسع في استعمال وسائل الاتصال الجماهيري أخذت المعاهد الأكاديمية تعنى بدراسة تلك الوسائل للتعرف على علاقة الجمهور والمستخدمين بها وأيضا التعرف على آثارها المختلفة من خلال عمليتي تلقي وتفسير المضامين الإعلامية. إذ حضي موضوع العلاقة بين وسائل الإعلام والمجتمع باهتمام الكثير من الباحثين، من بينهم الباحث دافيد مورلي الذي طرح موضوع حول التلقي المرتبط بوسيلة التلفزيون وكل الوسائل التكنولوجية المنزلية، فاهتم بصيرورة مشاهدة التلفزيون من قبل أفراد الأسرة مستخدما في ذلك المنهج الاثنوغرافي بمعنى استخدم الأسرة كوحدة للتحليل والدراسة، وفيما يلي شرحا مفصلا لأهم دراساته الإثنوغرافية.

4-استخدام المنهج الإثنوغرافي لدى دافيد مورلي David Morley

لقد خطت الدراسات الإعلامية خطوة متقدمة صوب عمليات التلقي وتطورت تطورا كبيرا، من خلال عناية النماذج الاتصالية بعملية تلقي الخطاب الإعلامي وفك الرموز اللغوية للرسائل المرسلة عبر الوسائل الاتصالية إلى المتلقي، الذي اهتمت به النظرية النقدية وعلم السيميولوجيا وتحليل الخطاب والإثنوغرافيا[1]. ويعد "ستيوارت هال" " Stuart Hall " ممن أسسوا لتحليل التلقي النشط في الدراسات الإعلامية من خلال مقاله الشهير حول التشفير وفك التشفير لمضامين الخطاب التلفزيوني، حيث يرى أن سيرورة الاتصال التلفزيوني تمر بأربع مراحل مختلفة تتمثل في: الإنتاج، والتوزيع، والاستهلاك وإعادة الإنتاج. فالجمهور بالنسبة لستيوارت هال يمثل مصدر الرسالة والمتلقي في الوقت نفسه. ومع ظهور الإعلام الجديد أصبح لزاما على الباحثين دراسة تأثيراته على المستخدم من خلال التعرف على مدى استخدام مواقعه وتطبيقاته وانعكاسات وتأثيرات هذا الاستخدام على المستخدمين وأهم التأويلات التي يعطيها هؤلاء على الرسائل المتداولة في البيئة الرقمية (خاصة في مواقع الدردشة الالكترونية كالشبكات الاجتماعية والمنتديات الحوارية وغيرها).

وبالرغم من التطور في الوسائط الاعلامية والاتصالية الجديدة إلاّ أن الباحثين في مجال الدراسات الإعلامية والاتصالية ما زالوا يهتمون بتأثيرات كل من التلفزيون والراديو والأقمار الصناعية التي تعتبر أحد مظاهر التطور التكنولوجي في القرن العشرين، مما جعل الباحثين في مجال الإعلام والاتصال يصفون القرن العشرين بأنه عصر

---

[1] دنيس ماكويل، سفن ويندل، **نماذج الاتصال في الدراسات الإعلامية**، ترجمة: حمزة أحمد أمين بيت المال، ط1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1997، ص 217.

الاتصال والمعلومات الذي غيّر حياة الأفراد ومهّد لأنماط جديدة من العلاقات والسلوكيات. وبالرغم من ظهور الوسائط الجديدة إلا أن التلفزيون لا يزال يحظى باهتمام الجمهور الذي أصبح محور اهتمام الدارسين والباحثين لعمليات التلقي، فبعد أن كان التركيز على المرسل وعلى الرسالة انتقل الاهتمام إلى المتلقي (المستقبل) وأصبح ينظر إليه كفرد فاعل ونشيط بعدما كان سلبيا، ومن هنا ظهر نوع جديد من الدراسات والأبحاث التي تركز على العلاقة بين المتلقي والرسالة وكان هذا مع ظهور أنموذج التفاعل والتأويلات للباحث " **دافيد مورلي**" **David Morley**

وفي سياق الاستعمال المنزلي لوسائل الإعلام والاتصال في المجتمعات الصناعية وما بعد الصناعية (المعرفية والتكنولوجية) نجد دراسات " دافيد مورلي" " David Morley " التي تعدّ من أهم الدراسات التي طرحت موضوع حول التلقي المرتبط بوسيلة التلفزيون، بداية بدراسة **جمهور برنامج "Nationwide"** التي قام بها سنة (1980) فقد ركزت هذه الدراسة على تحليل برنامج إخباري بريطاني موجه إلى جمهور واسع غير متجانس، يتكون من 29 مجموعة كانت قد شاهدت هذا البرنامج في BBC1، وتعكس هذه المجموعات بنيات اجتماعية واقتصادية مختلفة.

وقد توصل الباحث إلى نتيجة مفادها أن النص لا يتم إنتاجه بطريقة معزولة وإنما تتدخل فيه مجموعة من الشروط التاريخية تعطي للنص دلالته من جهة، ومن جهة ثانية أعاد التوكيد على أن الرسالة متعددة المعاني (Multiple meanings of the message) نتيجة لتعددية القراءات.

أما الدراسة الثانية "**Family Television** " أجراها عام 1986، انطلق من فكرة أن الجمهور نشط وفعال، فاهتم بصيرورة مشاهدة التلفزيون مستخدما المنهج الإثنوغرافي، فقام بدراسة 18 عائلة بريطانية (جنوب لندن) تتكون الأسرة من شخصين بالغين وطفلين على الأقل لا يتجاوز عمرهما 18 سنة ينتمون إلى الطبقة العاملة من العرق الأبيض، ذات مستوى اجتماعي وثقافي مختلف وأغلبها تنتمي إلى الطبقة العاملة أو الطبقة البورجوازية الصغيرة، قام الباحث بإجراء مقابلات معمّقة مع أفراد العينة، الهدف من الدراسة هو اكتشاف مختلف التفاعلات داخل الأسرة كوحدة قاعدية للتحليل حول شاشة التلفزيون في السياق الطبيعي لتلقي المضامين التلفزيونية في الفضاء العائلي، فعمل على استجوابهم وملاحظتهم بهدف اكتشاف الاختلافات بين الأسر وداخل كل أسرة (بين أفرادها) وركّز "مورلي" على علاقات السلطة بين الأفراد وإهمال إطار تحليل بنية الجمهور من حيث الطبقة والتعليم والإديولوجيا، فكانت هذه الدراسة انطلاقة لعدة دراسات تهتم بالتحليل الجزئي (الأسرة) فهذه الوحدة تعدّ كمكان فعال للممارسات الاجتماعية التي تتم تحت تأثير المحيط الاجتماعي والثقافي من جهة وتأثير الصفات الخاصة بكل أسرة من جهة أخرى.

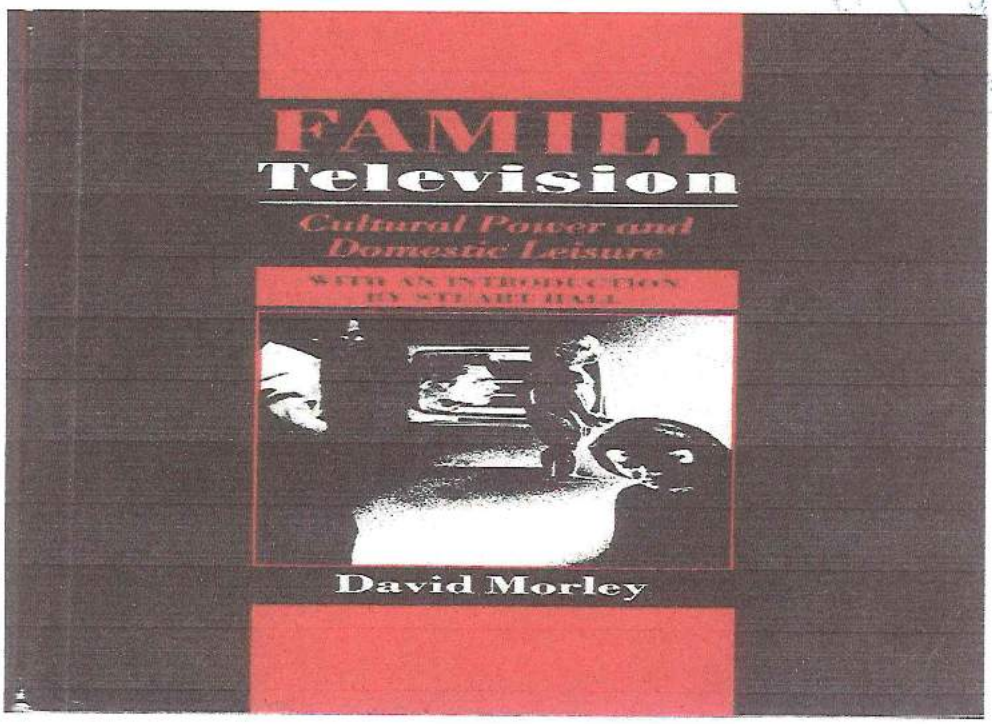

الشكل رقم (8) صورة غلاف كتاب ديفد مورلي

قام "مورلي" بإبراز المكانة التي يحتلها التلفزيون في النشاط الترفيهي لمختلف الأسر، وإظهار التوزيع غير المتكافئ لسلطة اتخاذ القرار بين الجنسين بشأن البرامج التي تشاهد وأوقات المشاهدة ومختلف سلوكات تلقي البرامج التلفزيونية.

استخلص " ديفد مورلي" عدة نتائج أهمها:

-ينفرد الرجال غالبا بسلطة اختيار البرامج التلفزيونية.

-تستخدم النساء التلفزيون كمادة للدردشة، في حين يرفض الرجال التحدث عنه.

-يفضل الرجال مشاهدة برامج الرياضة والنشرات الإخبارية.

-تفضل النساء مشاهدة الدراما وبرامج الخيال.

-الاختلافات بين أفراد الجمهور ليست فقط سيكولوجية أو ثقافية بالتعود، وإنما أيضا تعود إلى اختلافات إثنية.[1]

وفي سنة 1989 توجه "مورلي" رفقة "سلفرستون" إلى دراسة مشروع بعنوان " **The household uses of information**"، فلم يعد التلفزيون مركز الاهتمام الأساس، بل بحث في الدراسات الثقافية من خلال

[1] أرمان ماتلار وميشال ماتلار. **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين العياضي والصادق رابح، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005، ص 125.

تركيزه على مجال آخر وهو إشكالية التلقي وكيفية التعامل مع الأفراد داخل الأسرة في وجود التكنولوجيات الحديثة للاتصال، وقد اهتم الباحثان بمجموع التكنولوجيات المنزلية للاعلام والاتصال بما فيها التلفزيون، وكان اهتمام " دافيد مورلي" حول دور وسائل الإعلام في بناء وتكوين الهويات الثقافية، حيث تمحور انشغاله بصفة عامة في:

-اقحام مفهوم السياق الأسري في دراسة التلقي.

-النظر إلى التلفزيون كونه وسيلة تكنولوجية منزلية.

-التركيز على الديناميكية الأسرية واستخدام الأسر كوحدات للتحليل.

-التوجه المنهجي للبحث نحو المقاربة الإثنوغرافية.[1]

فقد أظهر " دافيد مورلي" " David Morley " أنموذج التفاعل والتأويلات، حيث اقترح فكرة وجوب فهم التكنولوجيا كنظام تقني ومادي واجتماعي وثقافي يشمل قواعد واستعمالات وعلاقات من خلال الاعتماد على المقترب الإثنوغرافي الذي يبنى على أساس (التحليل الجزئي) أي تحليل الأسر.

فالتحول الواضح بالنسبة لدافيد مورلي أحدث تغيرا في الدراسات الثقافية، حيث أكّد كذلك كما أكد "ستيوارت هال" " Stuart Hall " ضرورة بناء المعاني وفك الرموز وضرورة معرفة الأطر المرجعية والمعرفية والخلفيات وعلاقات الإنتاج أو السياق العام لمتلقي الرسالة وفهمها. وقد نقل اهتماماته من مجال التلقي إلى تحليل الرسائل الإعلامية ودراسة العلاقات بين البنية الطبقية وفك الترميز، فمورلي أعاد الاعتبار للمناهج القديمة الإثنوغرافية، بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقا ركز على الأسرة كوحدة التحليل في مشاهدة البرامج التلفزيونية لمعرفة مشكلة بناء الهويات والجماعات.

تعتبر دراسات "دافيد مورلي" من أهم الدراسات الاثنوغرافية التي اهتمت بكيفية استهلاك المضامين الإعلامية التلفزيونية من قبل الجمهور وذلك في إطار اجتماعي، تقني وثقافي واسع، من خلال فهمه للتعقيد الذي تتسم به ظاهرة التلقي انطلاقا من طريقة تعامل أفراد الأسرة مع التكنولوجيات المنزلية ومختلف التأويلات التي تصاحب سياق المشاهدة

ومع رواج الانترنت خاصة في بداية القرن الواحد والعشرين، ومع استخداماتها الواسعة من قبل فئات المجتمع خاصة الأطفال والشباب الذكور منهم والإناث، وظهور مفاهيم جديدة كالجمهور الإلكتروني-E " audience"، والجمهور القادر على التواجد في المكان والزمان"Ubiquitous audience "، وغيرها من

[1] David Morley and all. **Families technologies and consumption : The household and information and communication technologie**, the London School of Economics and Political Science, 2012
على الموقع Families, technologies and consumption(lsero).pdf تاريخ الاطلاع 2021/10/15 على الساعة 18:00

المفاهيم الجديدة المتعلقة بالجيل الإلكتروني، استمرت البحوث الإثنوغرافية التي استفادت كثيرا من الأبحاث التي قام بها " دافيد مورلي" والتي اعتمدت على المقترب الإثنوغرافي من أجل معرفة كيفية تفاعل الأفراد مع الانترنت، والآثار التي تحدثها على سلوكياتهم واتجاهاتهم.

– تطور المقترب الإثنوغرافي في دراسات الاتصال

– ملاءمة الدراسات الإثنوغرافية لأبحاث الجمهور والمستخدمين

تمهيد:

إن الاهتمام بالأبحاث المتعلقة بجمهور وسائل الإعلام الجماهيرية من قراء الصحافة المكتوبة، ومستمعي المحطات الإذاعية، ومشاهدي القنوات التفزيونية ومستخدمي الشبكة العنكبوتية العالمية (الأنترنت) هو اهتمام حديث نسبيا ولكنه يتزايد باستمرار مواكبا التطورات المتصلة بتكنولوجيا الإعلام والاتصال المتجددة.

وإن أهم ما في عملية التواصل الأدبي حسب نظرية التلقي هو المشاركة بين النص والقارئ، لأن حياة النص الأدبي لا تكتمل إلا بالقراءة وإعادة الإنتاج، وقد طور بعض منظري الإعلام نظرية التلقي وأقاموا خطوط تلاقي بينها وبين نظرية الاستخدامات والاشباعات المرتكزة على تأثير وسائل الإعلام وطريقة استخدامهم والمنفعة المحققة منهم، وترى هذه النظرية أن المادة الإعلامية لا تستقل بمعنى ذاتي، بل يتم المعنى من خلال التفاعل بين المادة والمضمون والمتلقي لأن العوامل المحيطة بالمتلقي تأثيرها أكبر من المضمون الإعلامي، حيث تشمل هذه العوامل هوية المتلقي وظروف التعرض والتجارب السابقة وما يحيط بالمتلقي سياسيا واجتماعيا ...الخ.

1–المقترب الإثنوغرافي لدراسة الجمهور والمستخدمين:

إذا كانت وسائل الاتصال الجماهيري التقليدية قد حققت سبقا في مجال التنظير والتطبيق لاستخداماتها وتأثيراتها ، فإن ذلك يدعو إلى عدم تجاهل ما يستحدث من وسائل ظهرت بعدها لم تكتمل لها الأبعاد النظرية والتطبيقية للاستخدامات والتأثيرات[1]. فلا يمكن إغفال أهمية البحث والدراسة العلمية باستخدام منهج علمي مناسب لدراسة جمهور وسائل الاتصال الجماهيرية التقليدية ومستخدمي الوسائط الجديدة، وهذا ما جعل الباحثين يطرحون السؤالين الآتيين:

أ/ لماذا ندرس جمهور وسائل الاتصال الجماهيرية ومستخدمي الوسائط الجديدة؟

ب/ كيف ندرس جمهور وسائل الاتصال الجماهيري ومستخدمي الوسائط الجديدة؟

[1] محمد عبد الحميد. **نظريات الإعلام واتجاهات التأثير**،ط3، عالم الكتب، القاهرة، 2004، ص 123

يجعلنا السؤال الأول نفكر للوهلة الأولى في الفائدة من دراسة الجمهور والمستخدمين والقيمة العلمية التي يمكن إضافتها من خلال هذا النوع من الدراسات، وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن سبب دراسة الجمهور والمستخدمين هو معرفة أهم مظاهر العلاقات التي تحدث بين المتلقي وبين القائم بالاتصال من خلال إحدى وسائل الإعلام أو إحدى الوسائط الجديدة، مثل: معرفة تأثير الرسائل الإعلامية، وقياس الأثر المتبادل بين الرسالة والمتلقي، ومعرفة حجم التفاعل الحاصل بينهما، وقياس مدى التفاعلية بين المستخدمين، وبالتالي يتم دراسة جمهور وسائل الإعلام ومستخدمي الوسائط الجديدة لتحديد الآليات التي تعيد توجيه الأفراد نحو هدف يريده المرسل (القائم بالاتصال).

أما السؤال الثاني يجعلنا نفكر في مناهج دراسة الجمهور والمستخدمين والأدوات الأنسب للدراسة، فالمنهج الكمي الذي كان مستعملا في الدراسات الأولى لجمهور وسائل الإعلام كان يقدم تفسيرات سطحية وعامة دون إمكانية الغوص في تفاصيل أي دراسة، فالمنهج الأنسب لدراسة الجمهور والمستخدمين خصوصا بعد التطورات السريعة والهائلة في مجال تكنولوجيات الإعلام والاتصال هو " المنهج الإثنوغرافي" الذي يقوم أساسا على أداة الملاحظة وتحديدا الملاحظة بالمشاركة، فدراسة جمهور وسائل الإعلام ومستخدمي الوسائط الجديدة تعتمد على المقاربات النوعية (الكيفية) المستخدمة في الدراسات (النظرية) والمقاربات الكمية المستخدمة في الدراسات (التطبيقية)، لكن من الأفضل استخدام كلا المقاربتين أثناء إنجاز دراسة أكاديمية للجمهور والمستخدمين من أجل تحقيق تكامل يمكّن الباحث من جمع أكبر عدد من البيانات ويساهم في الوصول إلى أدق النتائج الممكن الوصول إليها. لكن يبقى المنهج الأكثر ملائمة لدراسة الجمهور والمستخدمين في ظل انتشار تكنولوجيات الإعلام والاتصال الجديدة –كما أشرنا سابقا– هو المنهج الإثنوغرافي.

ويتضمن المنهج الإثنوغرافي جمعا مكثّفا للبيانات والمعلومات عن العديد من المتغيرات حول الجمهور ومستخدمي الوسائط الجديدة في فترة زمنية محددة وفي وضع طبيعي، ويقصد بمصطلح "الوضع الطبيعي" أن متغيرات البحث يجري استقصاؤها في الموقع الذي تحدث فيه بشكل طبيعي وأثناء حدوثها وليس في بيئة وضعها الباحث في ظروف شديدة الضبط أو مصطنعة.

يقوم الباحث الإثنوغرافي عند دراسة جمهور وسائل الإعلام ومستخدمي الوسائط الجديدة بمعايشتهم لفترة من الزمن، وذلك بهدف توضيح أنماط وكيفيات استخدام الأفراد للوسيلة وتفسير سلوكياتهم والمعتقدات والاتجاهات والتمثلات الثقافية والإدراك والدوافع الخاصة بالأفراد، وكذلك التأويلات والتفسيرات المختلفة التي يعطيها الأفراد للرسائل الإعلامية. فعند القيام بدراسة إثنوغرافية حول الجمهور والمستخدمين فإن الباحث يقع في حدود البحث

الكيفي السوسيولوجي لمجرد الفهم وإجراء البحث الميداني، لأن الفهم والمشاركة تفيد في التغيير نحو الأفضل وبالتالي فإنه يختلف في المنهجية والأهداف عن الأبحاث الكمية.

إن استخدام المنهج الإثنوغرافي يساعد الباحث والدارس للظواهر الإعلامية والاتصالية على فهم أي ظاهرة أو مشكلة لا يعرف عنها شيء أو قد لا تتوفر حولها معلومات كثيرة، بحيث يصبح المنهج الإثنوغرافي مفيدا وفاعلا عند استخدامه للحصول على وجهات نظر وآراء مختلفة وملاحظات متنوعة، أو للحصول على معلومات دقيقة ومعمقة من الصعب التعبير عنها بطريقة كمية أو بطريقة إحصائية، ويؤدي إلى مستوى من التعمق، لا يتحقق في الدراسات الكمية التي تحصر نطاقها في المظهر الخارجي للسلوك ولا يمكنها الكشف عن الأساليب الكامنة خلفه، أو العوامل السياسية والاجتماعية والثقافية...التي تكمن خلف هذا السلوك، مما يجعل المنهج الإثنوغرافي الأنسب لدراسة السلوك الإتصالي والظواهر التي لا تتوافر على معلومات كافية.

وفي السنوات الأخيرة، عرف البحث الميداني الإثنوغرافي تطورا كبيرا وذلك لاستعانة الباحث أثناء تواجده في الميدان بالوسائل السمعية البصرية المتطورة التي سمحت له بتسجيل كل شاردة وواردة، وكل ما عجز أو غاب عن تسجيله الكتابي، أو عجزت ذاكرته استيعابه وتذكره. لقد بدأ يستعمل وسائل متعددة ومتطورة في التسجيل الصوتي إذا كان الموضوع أساسا صوتيا، أو التصوير الفوتوغرافي، إذا اقتضى الأمر استعمال الصور من خلال تصوير بعض الأحداث أو بعض السلوكيات سواء مصورة جامدة، أو تسجيل الأحداث والممارسات في وقتها الآني في صورة فيلم يعود إلى مشاهدة ورؤية الأحداث من جديد وهي تتحرك وقت ما شاء وأين ما شاء.

أدوات وتقنيات البحث الإثنوغرافي:

ينطلق المنهج الإثنوغرافي من مفهوم نظري وفلسفي مناقض لمفاهيم البحوث التقليدية، ففي حين يسعى البحث الكمي الإحصائي إلى تحديد الأسباب، والتنبؤ وتعميم النتائج، يسعى البحث الإثنوغرافي إلى التبصر، والفهم، والاستكشاف، ودراسة السلوك الإنساني من خلال التفاعل بين الباحث والمبحوثين، وعبر الفهم المتعمق لشعور وأحاسيس وأفكار ومعتقدات المبحوثين، ومن ثم ينتج من هذا التحليل الكيفي نوعا من المعرفة يختلف عن نتائج البحث الكمي. ويرى أوجبو "Ogbu" أن البحث الإثنوغرافي طريقة وأداة لفهم أساليب مجتمع أو جماعة ما، وطرقه في الحياة اليومية، من خلال معرفة أفكار أعضائه ومعتقداتهم وقيمهم وسلوكياتهم، وما يصنعونه من أشياء يتعاملون معها، ويتم ذلك عن طريق الملاحظة بالمشاركة في الوضع الطبيعي الحياتي من جانب الباحث" . إضافة إلى تقنية الملاحظة بالمشاركة يستخدم الباحث الإثنوغرافي وسائل أخرى أهمها المقابلة المفتوحة المتعمقة مع عينة الدراسة (الموجهة وغير الموجهة)، إضافة إلى التصوير الفوتوغرافي(الصور الثابتة)، والتصوير الفلمي (الصور المتحركة) والاختبارات النفسية ، تحليل الوثائق والمجلدات ودراسة آثار المادية والسير الذاتية.

وباستخدام هذه الأدوات يركز البحث الإثنوغرافي على دراسة حالة اجتماعية معينة، أو حدث معين، وتقديم فهم شمولي عن الحالة أو الحدث، و يعتمد هذا الوصف على النص أكثر من اعتماده على الأرقام، ولذلك فإن البحوث الكيفية تعتمد في عرضها للنتائج على التحليل والتفسير لإجابات المبحوثين واستخلاص الرؤى منها. لهذا على الباحث الإثنوغرافي أن ينظر إلى السلوكيات والممارسات الاجتماعية نظرة كلية شمولية، ضمن إطار الأبعاد الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية والتنظيمية، وأن يعتمد لتحقيق ذلك كل الأدوات البحثية المذكورة أو بعضها بما يتماشى مع أهداف دراسته، وفيما يلي سنذكر أهم هذه الأدوات بقليل من التفصيل والشرح المختصر.

أولا: **الملاحظة بالمشاركة:**

تعتبر الملاحظة من أهم وسائل البحث وجمع المعلومات " فقد استخدمت في جمع المعلومات لدى جميع الشعوب بدائية كانت أو متحضرة، في الماضي أو في الحاضر، وذلك من أجل الحصول على المعلومات عن الأشياء والمواقف المحيطة بهم والتعرف على ظواهر الحياة ومشكلاتهم ". [1] والباحث الاثنوغرافي يستخدم الملاحظة بالمشاركة لملاحظة جميع سلوكات وتصرفات الجماعة المدروسة، فالملاحظة بالمشاركة حسب الباحث "جورج لاباساد" " Georges Lapassade " هي " طريقة يشارك فيها الباحث في الحياة اليومية للمجموعة الاجتماعية موضوع البحث، ومن ثم يتحول الباحث إلى فاعل (Acteur /Actor " لا مجرد مشاهد (متفرج) أو عنصر محايد" . يطلق عليها العلماء مصطلح "التدخل الوظيفي" حيث أن الباحث في بداية دراسته الميدانية يواجه مشكلة الدور الذي يجب أن يؤديه في مجتمع الدراسة للحصول على البيانات والمعلومات الصحيحة، حيث أن وجود الباحث في عشيرة أو قبيلة أو جماعة ما تدفع الأفراد أو جمهور لوسيلة إعلامية أو مستخدمي الوسائط الجديدة (المجموعات الافتراضية) إلى تغيير سلوكهم العادي أو إلى الادلاء بأقوال لا تعبر عن الواقع، وذلك لشعورهم أنهم خاضعين لملاحظة غيرهم، ولذلك وجب على الباحث الإثنوغرافي أن يقوم بدور ما في المجتمع المدروس حتى يقبله أفراد المجتمع كأنه أحد منهم، وبالتالي يكتسب ثقتهم ويجمع المعلومات الصحيحة.[2] وهي "مشاركة الباحث في النشاط الاجتماعي والثقافي الذي يقوم به أهالي منطقة البحث هذا من جهة، ومن جهة ثانية الحضور الشخصي والدائم والمستمر بينهم طيلة مدة إنجاز البحث وجمع مادته." [3]

فالملاحظة بالمشاركة هي " تقنية بحثية شديدة الأهمية والخطورة في آن واحد، فعلى الرغم من اعتبارها الأداة والوسيلة الوحيدة للتعرف بعمق على الأخرين، إلا أنها تتطلب من الباحث اتخاذ مسافة معينة من البحث مجال الدراسة ، فالملاحظة "العلمية" للدراسة تقتضي " التموضع في الخارج" ولأجل فهم المجتمع المدروس يفضل أن يكون الباحث جزء منه.

---

[1] وسام العثمان أحمد. **المدخل إلى الأنثروبولوجيا**، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2002، ص 118.

[2] الملاحظة بالمشاركة في الأنثروبولوجيا على الرابط:
https://www.aranthropos.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%B8%D8%A9
تم الولوج إليه بتاريخ 2021/10/17 على الساعة 19:20

[3] عاطف وصفي. **الأنثروبولوجيا الثقافية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1971، ص 285

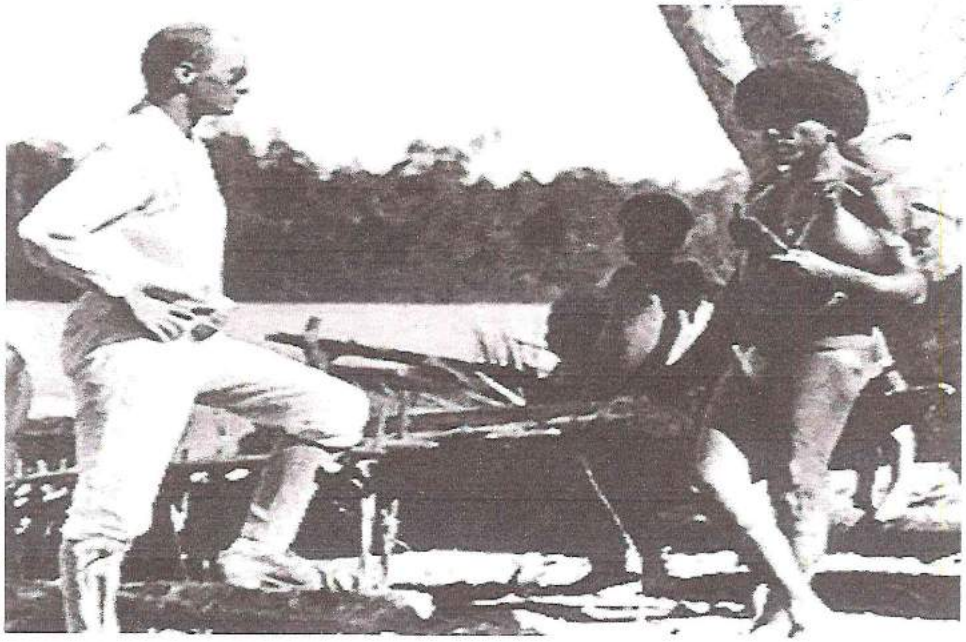

وبالنسبة لموضوعية الباحث الإثنوغرافي في نقل الملاحظات الميدانية (التي تتحول لاحقا إلى معطيات قد تم تسجيلها) فإن هذه "الموضوعية" تنحصر في الأمانة البحثية في نقل المعلومات وفي محاولات الباحث المستمرة لعدم التورط في فخ الاسقاطات الثقافية على الحقل المدروس، بناء على ذلك فإن المعطيات الملاحظة ليست حقائق واقعية ملموسة تلتقط وتحفظ بصرف النظر عن الباحث (فهذا وهم الموضوعية) كما أنها ليست إنشاءات ذهنية وعاطفية صرفة (فهذا وهم الذاتية) إنما هي معطيات يجرى دراستها "بموضوعية" من خلال الباحث الذي اختارها وأدركها متفاعلا معها، لا يمكن لهذا الإدراك أن يكون موحدا أو عاما لدى الباحثين، فملاحظات الباحث الإثنوغرافي تبنى من خلال ما يلاحظه من خلال إشكاليته، ثقافته، شخصيته، المجال المدروس والمقاربة المعتمدة ...الخ. فقد أحصت Chauchat .H أربع مواصفات أساسية لطريقة الملاحظة بالمشاركة تتمثل فيما يلي:

1-اندماج الملاحظ في المجموعة المدروسة من خلال المشاركة الفعلية في حياة هذه المجموعة.

2-مراعاة الحياد في هذه الحالة مجرد وهم، فالملاحظات التي يبديها الملاحظ تمر عبر المصفاة المتكونة من تدخلاته المختلفة.

3-إن دراسة وفهم الظاهرة الاجتماعية يرتبطان بالالتزام الشخصي للملاحظ.

4-تكون الملاحظات بشكل مشترك ومتزامن مع انجاز البحث.[1]

[1] Chauchat.Hélene. **L'enquête en psycho- sociologie**, PUF, Paris, 1985, pp 92-93

ويحدد الباحث " إيفانز بريتشارد" شروط نجاح عملية الملاحظة بالمشاركة فيما يلي:[1]

1-أن تسبقها مرحلة تخصص ودراسة نظرية كافية في الأنثروبولوجيا عامة وعلم الاجتماع خاصة ، فيكون على الأقل حصل الباحث على درجة جامعية أولى في أحد فروع العلوم الاجتماعية قبل الدراسة الميدانية وتطبيق الملاحظة بالمشاركة.

2-أن يقضي الباحث فترة كافية في مشاركة أفراد المجتمع موضوع الدراسة في معيشتهم، ويجب أن لا تقل الفترة عن عام، ولاشك أن تحديد الفترة الكافية يرتبط بعوامل متعددة مثل (حجم المجتمع وطبيعة المشكلة المراد دراستها).

3-أن يكون الباحث طوال فترة الملاحظة على صلة وثيقة بالأهالي عن طريق اشتراكه في معظم جوانب حياتهم الاجتماعية.

4-أن يستخدم الباحث في حديثه مع أفراد مجتمع الدراسة لغتهم الوطنية، ولا يستخدم المترجم لفشل المترجم كثيرا في نقل الأفكار والمعاني بالدقة الكاملة.

5-أن يدرس الباحث جوانب الحياة الاجتماعية كلها لفهم البناء الاجتماعي وتحديد وظائفه.

6-لابد من توفر نوع معين من الشخصية والمزاج، فبعض الناس لا يتحملون مشاق العزلة عن وطنهم الأصلي، فغالبا تكون الحياة في مجتمع الدراسة قاسية كالظروف غير الصحية في المجتمعات البدائية مثلا.

7-أن يتخلى الباحث عن قيمه وثقافته بقدر المستطاع ، حتى يتمكن من تحقيق الملاحظة الموضوعية.

---

[1] أحمد مسلم عدنان. **محاضرات في الأنثروبولوجيا " علم الانسان"**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2001، ص ص 232-233

8-يحتاج الباحث لمهارة أدبية في نقل تفاصيل البناء الاجتماعي لوصفه وتحليله ، فعليه أن يبين ويشرح معنى الظواهر الاجتماعية التي لاحظها وأن يبرز هذا المعنى بوضوح في صور أخرى، ويقتضي ذلك مهارة إدراك الصيغ والنماذج اللغوية وتميزها، فالمهم أن يكون ذلك الباحث قادرا على التعبير والكتابة بلغة واضحة سليمة.

انطلاقا مما سبق، يمكن القول أن الملاحظة بالمشاركة ليست ملاحظة عشوائية سهلة، وإنما يلزمها الكثير من الدقة والتنظيم والتركيز بعمق في البناء الاجتماعي والعلاقات الاجتماعية والتفاعلات الاجتماعية وغيرها من الظواهر التي يريد الباحث دراستها. لهذا يحرص بعض الأنثروبولوجيين منذ بداية البحث على إنشاء دليل للملاحظة (شبكات ملاحظة) وهو عبارة عن قائمة مرجعية تتضمن العناصر التي سيتم ملاحظتها من قبل الباحث بشكل منتظم في حقل الدراسة.

إن دور الباحث أثناء قيامه بالملاحظة يجب أن يكون ثانويا، وأن مشاركته في الأنشطة لا تعني أنه أصبح واحدا من أعضاء المجتمع، بل يجب عليه أن يتذكر دائما أن الغرض من المشاركة هو ملاحظة المجتمع من الداخل.[1]

يبقى أن نشير إلى المشكلة التي تعترض الباحث أثناء استخدامه تقنية "الملاحظة بالمشاركة" وهي أن عددا كبيرا من سلوكيات الجماعة المدروسة تتأثر بوجود الباحث ، فيعمل أفراد هذه الجماعة على إخضاع أنفسهم للمراقبة الذاتية، وتصنّع بعض التصرفات والاستجابات، وهذا ما يفترض بالباحث الأنثوبولوجي اكتشافه بشكل أو بآخر ، مع العلم أن بقاء الباحث ضمن الميدان لفترة طويلة نوعا ما، واندماجه الاجتماعي (الذي لا يلغي قدرته على الملاحظة) هو ما يضعف هذا التكلّف ويفرض العودة إلى عفوية التصرفات وبالتالي ملاحظتها.

ثانيا: المقابلة الاثنوغرافية:

يستخدم الباحث الاثنوغرافي أثناء الدراسة الميدانية إضافة إلى الملاحظة تقنية المقابلة، التي تشمل المقابلة الموجهة والمقابلة غير الموجهة، التي تعرف استخداما كبيرا مقارنة بالطريقة الأولى في هذا النوع من الدراسات، لأنها تسمح للباحث بأخذ معلومات كيفية معمّقة حول أفراد عينة الدراسة. إن المقابلة بوصفها وسيلة لجمع البيانات والمعلومات يعتمد فيها الباحث على المحادثة والموجهة مع الآخرين من أفراد مجتمع البحث الذي يقوم بدراسته، وتعتبر المقابلة مصدرا مهما من مصادر المعلومات بالإضافة إلى أهمية استخدام المقابلة مع الإخباريين بهدف تجميع أكبر قدر من المعلومات وإلقاء الضوء على بعض الجوانب التي توصل إليها الباحث من خلال عملية الملاحظة بالمشاركة.[2] وحسب مصطفى سويف فإن المقابلة هي" مجموعة من الأسئلة أو من وحدات الحديث يوجهها طرف لطرف آخر في موقف مواجهة حسب خطة معينة للحصول على معلومات عن سلوك الطرف الآخر أو سمات شخصية أو للتأثير في هذا السلوك".[3] يعرفها أيضا عبد الباسط حسن بقوله:" المقابلة هي تبادل لفظي في

---

[1] محمد حسن الغامري. **طريقة الدراسة الأنثروبولوجية الميدانية**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، ص 44.

[2] هالة منصور، **محاضرات في علم الأنثروبولوجيا**، الهيئة العامة لدار الكتب، 1998، ص 112.

[3] مصطفى سويف. **مقدمة لعلم النفس الاجتماعي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970، ص 379.

موقف مقابلة بين الباحث والمبحوث ويرتبط بذلك اللفظي تغيرات الوجه، والعيون والهيئة والإيماءات والسلوك العام، وهي مواجهة بين الباحث والمبحوث تهدف إلى غرض واضح ومحدد، وبالتالي فهي تختلف عن الحوار العادي، أو الحديث بين طرفين أو أكثر والذي قد لا يهدف إلى تحقيق هدف معين".[1]

أ- المقابلة الموجهة (المقننة): "Guided Interview "

وتتمثل تلك الطريقة في استخدام استمارة تتكون من مجموعة من الأسئلة التي وضعت بدقة حول موضوع معين، إذ يجب على الباحث أن يقرأ كل سؤال أمام الشخص المراد دراسته ثم تسجيل إجابته في الاستمارة، بحيث تتم قراءة الأسئلة بصورة محايدة بحيث لا تؤثر على إجابات المستجوب، وتعتبر هذه الطريقة غير شائعة في الدراسات الخاصة بالمجتمعات الريفية والبدائية، ذلك أنها تثير شكوك الأفراد لعدم تعودهم على تلك الطريقة الرسمية في الحديث وخاصة أنه في الغالب لا يعرف القراءة والكتابة ولم يحدث أن قابله أحد وأخذ يسجل أقواله، و لذلك لا يستخدمها الإثنوغرافيون كثيرا إلا في المجتمعات الحضارية. ورغم أن مثل هذا النوع من المقابلة يمكن أن يتضمن نوعي الأسئلة المفتوحة والمقفولة، إلا أن المستخدم في البحوث السوسيولوجية على التحديد غالبا ما يكون نوع الأسئلة المقفولة التي يختار فيها المبحوث إجابته من بين إجابات محددة مدرجة أمامه.[2]

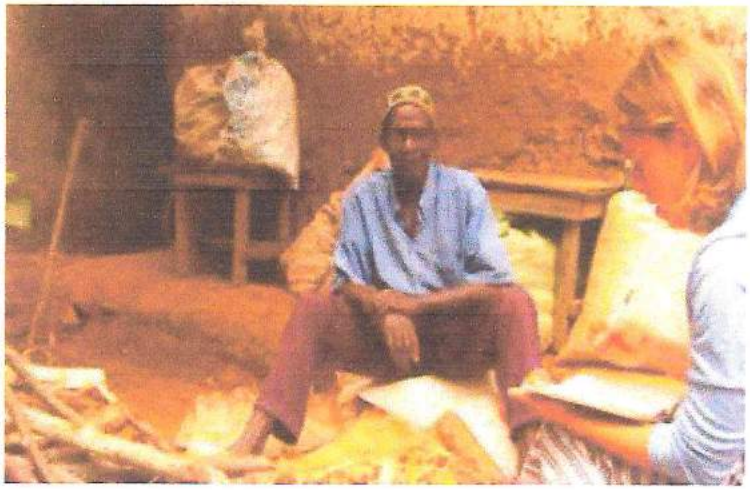

ب- المقابلة غير الموجهة " (الحرة) Unguided Interview ":

هي تقنية تستعمل من أجل مساءلة الأفراد بكيفية منعزلة، لكن أيضا في بعض الحالات مساءلة الجماعات بطريقة غير موجهة تسمح بأخذ معلومات كيفية بهدف التعرف العميق على الأشخاص، حيث يقوم الباحث بتوجيه الأسئلة لأفراد العينة على أن يكسب ثقتهم في المقابلات الأولية، مع إتاحة الفرصة لهم للإجابة المطولة

[1] عبد الباسط محمد حسن. **أصول البحث الاجتماعي**، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1966، ص 449.

[2] عبد الله عبد الغني غانم. **طرق البحث الأنثروبولوجي**،ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2004، ص 116.

دون توجيه الإجابة وجهة معينة، ولا يحاول الباحث قطع حديثهم إذا انتقلوا للحديث في موضوع آخر، وإنما يقوم بتشجيعهم

باستخدام كلمات أو عبارات تزيد من شدة استرسالهم في الحديث حول الموضوع الذي يهم الباحث، ويمكن للباحث تدوين تلك المعلومات أو تسجيلها بالآلات الحديثة إذا كان ذلك لا يؤثر سلبا على ثقتهم به، وعلى الباحث أن يقوم بتدوين كل ما يسمعه أثناء المقابلة أو بعدها مباشرة حتى لا ينسى بعض عناصرها، بمعنى أنها "مقابلة لا تقيد المبحوث بالإجابة عن أسئلة محددة، كما أنها لا تقيد المبحوث بالاختيار بين إجابات محددة لما يطرح عليه من أسئلة أو تساؤلات، بل يترك له التعبير عن كل ما يخالجه من أفكار أو دوافع واتجاهات ومشاعر ومعتقدات".[1]

وأهم ما يميز هذا النوع من المقابلات هو إتاحتها الفرصة لإظهار سمات شخصيات الأفراد، وذلك بإعطاء المعلومات التفصيلية عن الموضوعات التي تدور حولها الأسئلة.

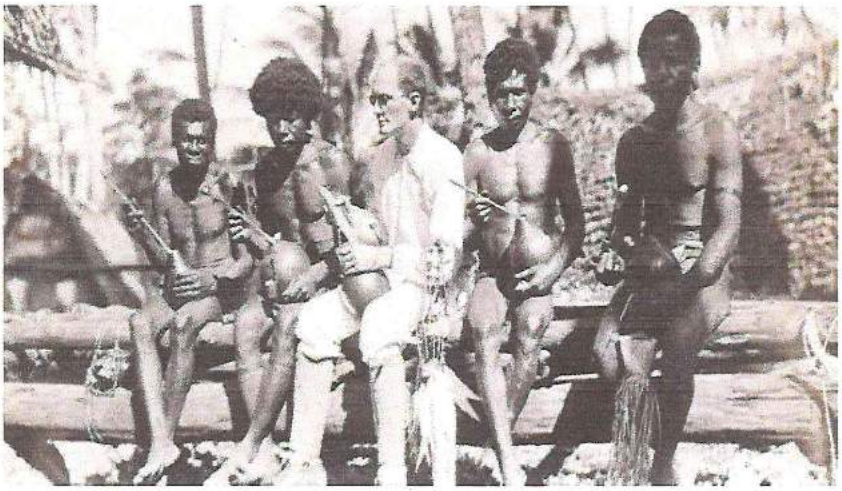

ج- المقابلة المتمركزة: centered interview

هي المقابلة المكثّفة والتي تعتبر المدخل الأكثر شيوعا لجمع البيانات وأنها المدخل الذي يمكننا بالفعل من فهم الكيفية التي ينظر إليها المبحوثون إلى واقعهم وحياتهم.[2]

ومنه فطريقة المقابلة تكتسي أهمية كبيرة في البحوث الإثنوغرافية لأنها تدعم أداة الملاحظة بالمشاركة، من خلال الحصول على معطيات ومعلومات أكثر تفصيلا عن الظاهرة المدروسة، وتساعد الباحث على التعمق أكثر من جوانب المجتمع البحثي محل الدراسة.

3- طريقة الاختبارات النفسية:

[1] عبد الله عبد الغني غانم. مرجع سابق، ص 111

[2] المرجع نفسه، ص ص 116-117.

الاختبارات النفسية هي أداة مصممة لقياس السلوكات الخفية، والتي تعرف أيضا بالمتغيرات الكامنة. تكون الاختبارات النفسية عادة وليس بالضرورة سلسلة من المهام أو المشكلات التي يجب أن يحلها الشخص المستجيب ، وحتى يكون الاختبار النفسي مفيدا يجب أن يتصف بصفتين، الصفة الأولى تتمثل في المصداقية (مثال: أن يكون هناك دليل يدعم التفسير الذي تقدمه النتائج) والموثوقية (مثال: الثبات الداخلي أو إعطاء نتائج ثابتة عند تكرار الاختبار).

هذه الطريقة غير شائعة كثيرا في الدراسات الإثنوغرافية، وتستخدم عموما في الأنثروبولوجيا الاجتماعية أثناء الدراسات الميدانية لبعض الاختبارات النفسية لتحديد خصائص شخصية أفراد المجتمع موضوع الدراسة. فالقليل من علماء الأنثروبولوجيا المتعلقة بعلم الاجتماع يستخدمون هذا النوع من الاختبار، وذلك لتكون الحصة الأوفر في استخدامات علماء الأنثروبولوجيا الثقافية الذين يتخصصون في تحديد العلاقة بين الشخصية والحضارة في مجتمع ما.[1]

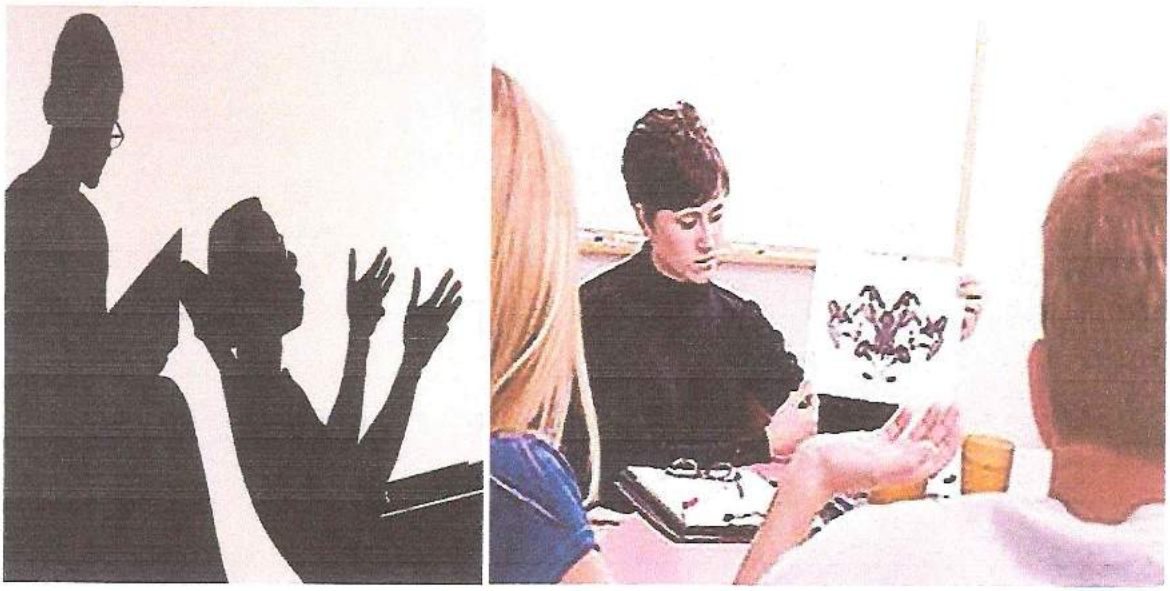

ومن أمثلة تلك الاختبارات "اختبار رورشاخ" (Rorschach Test)، وهو اختبار نفسي تسجل فيه تصورات الأشخاص عن بقع الحبر ثم تحليلها باستخدام التفسير النفسي أو الخوارزميات المعقدة ، أو كليهما، يستخدم بعض علماء النفس هذا الاختبار لفحص خصائص شخصية الشخص وأدائه الانفعالي، سمي الاختبار على اسم مبتكره عالم النفس السويسري "هرمان رورشاخ" « Hermann Rorschach». يقوم هذا الاختبار على

[1] عاطف وصفي، المرجع السابق، ص 171

أساس افتراض العلاقة بين الإدراك والشخصية، حيث يعكس إدراك الفرد لبقع الحبر طبيعة وظائفه السيكولوجية وذلك من خلال استثارة البقع بغموضها لاستجابات مرتبطة بحاجات الفرد وخبراته السابقة وأساليبه المعتادة للاستجابة للمثيرات المختلفة.[1]

إن استعمال الاختبارات النفسية يكمن في كون المادة الإسقاطية المحصل عليها تسمح بفهم نوعية العلاقة مع الواقع، إلا أنه يجب الإشارة هنا أن القليل من علماء الأنثروبولوجيا المتعلقة بعلم الاجتماع يستخدمون هذا النوع من الاختبار لتكون الحصة الأوفر في استخدامات علماء الأنثروبولوجيا الثقافية الذين يتخصصون في تحديد العلاقة بين الشخصية والحضارة في مجتمع ما.

4-تحليل الوثائق:

إن جمع الوثائق والعينات المادية وغير المادية هي طريقة غير تفاعلية في الحصول على البيانات ويسعى الباحث باستخدام هذه الطريقة إلى الحصول على المعلومات من الوثائق والعينات المادية وغير المادية، فالوثائق والملفات والعينات تمثل انعكاسا للمعتقدات والسوكيات التي تشكل ثقافة المجتمع المدروس، فهي تصف الخبرات الإنسانية والأفعال والقيم والوسائل المادية التي كانت تستخدم في حقبة ما ومن أمثلة هذه العينات : المخطوطات، الآثار والتحف الفنية والنقود المعدنية وغيرها.

إن السجلات والوثائق هي إحدى الأدوات والمصادر التي تزود الباحث بالمعلومات والمعطيات اللازمة أثناء إنجاز الأبحاث والدراسات، فيعمل الباحث من أجل الحصول على معطيات ومعلومات هامة يتم استخدامها في مراحل مختلفة من البحث، كالإحصائيات المتعلقة بمجتمع البحث، إضافة إلى الحصول على قوائم اسمية خاصة بالفئة المدروسة في حقبة زمنية معينة.[2]

[1] إبراهيم مصطفى حماد. **مساق الاختبارات النفسية (عملي) اختبار رورشاخ الإسقاطي**، كلية التربية، قسم علم النفس، الجامعة الإسلامية، غزة، 2008، ص 1

[2] رحاب مختار. **مناهج وتقنيات البحث الأنثروبولوجي في موضوع أسماء الأعلام، مجلة العلوم الاجتماعية**، العدد 19 ديسمبر 2014، ص ص 100- 101

فالإثنوغرافي في هذا المجال يتبنى أساليب المؤرخين في تحليل الوثائق وأساليب علماء الآثار في دراستهم الأشياء التي أوجدها القدماء.فالاثنوغرافيا كانت " تشير إلى وصف عادات وتقاليد الشعوب التي تنعت بالبدائية" [1] فهذه الشعوب خلفت وراءها آثارا ووثائق تعبر عن الحياة اليومية التي كان يعيشها الإنسان في فترة من الفترات وهي اليوم بمثابة المادة الخام التي يبدأ منها الباحث الاثنوغرافي أبحاثه.

[1] أوجيه، مارك، جان بول، كولاين. **الأنثروبولوجيا**، ترجمة: جورج كتوره، سلسلة نصوص، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، 2008، ص 13

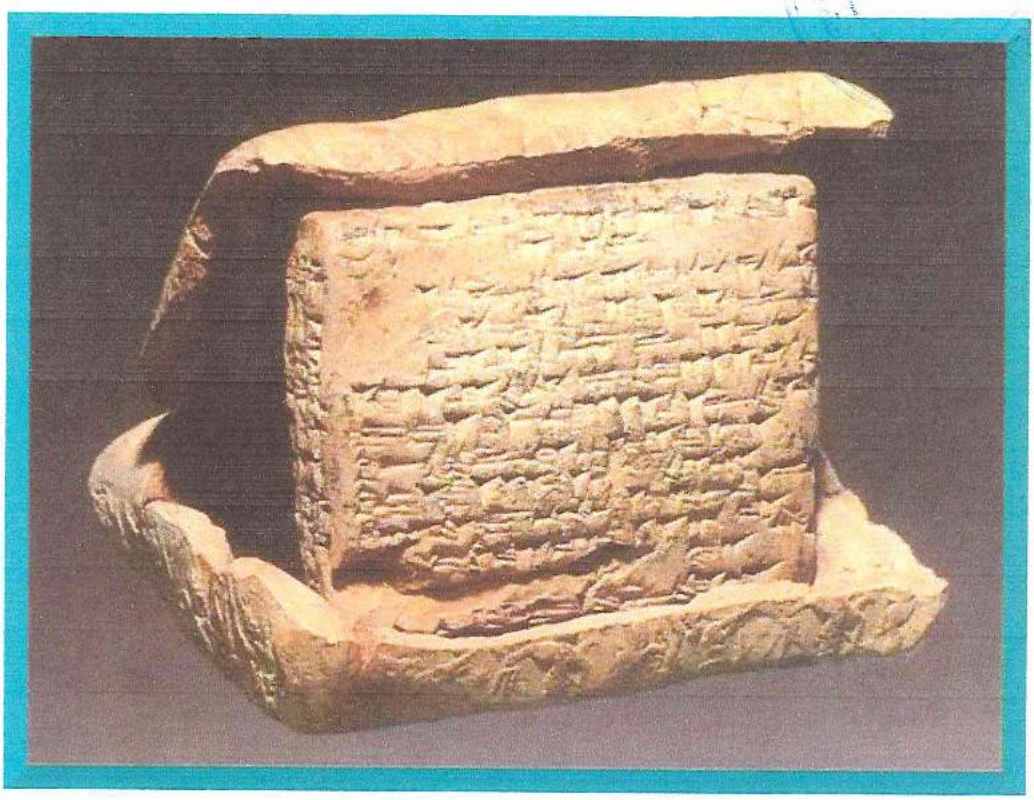

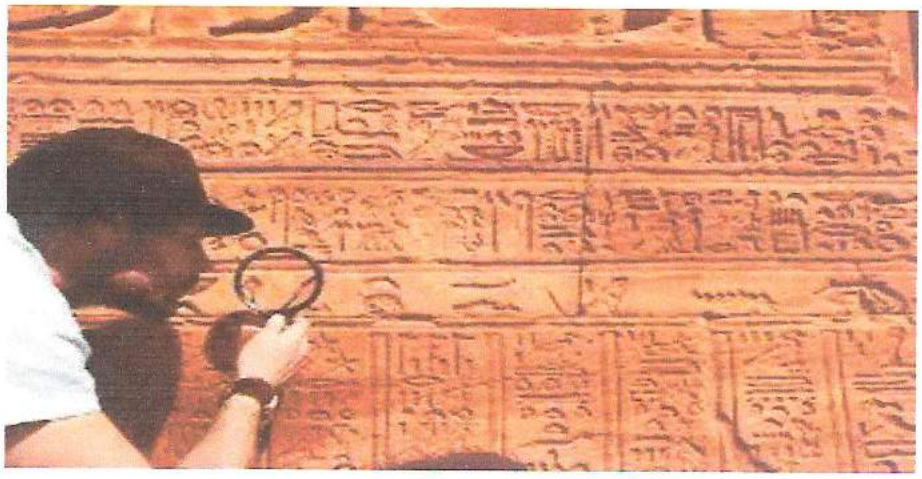

ومن أمثلة هذه الوثائق ما يلي:

1-الوثائق الشخصية: تتضمن المفكرات والرسائل الشخصية والسجلات القصصية.

2-الوثائق الرسمية: تأخذ الوثائق الرسمية أشكالا متعددة منها: وثائق المؤتمرات، أوراق العمل ومسودات المخططات والرسائل وغيرها. من أمثلة هذه الوثائق الرسمية:

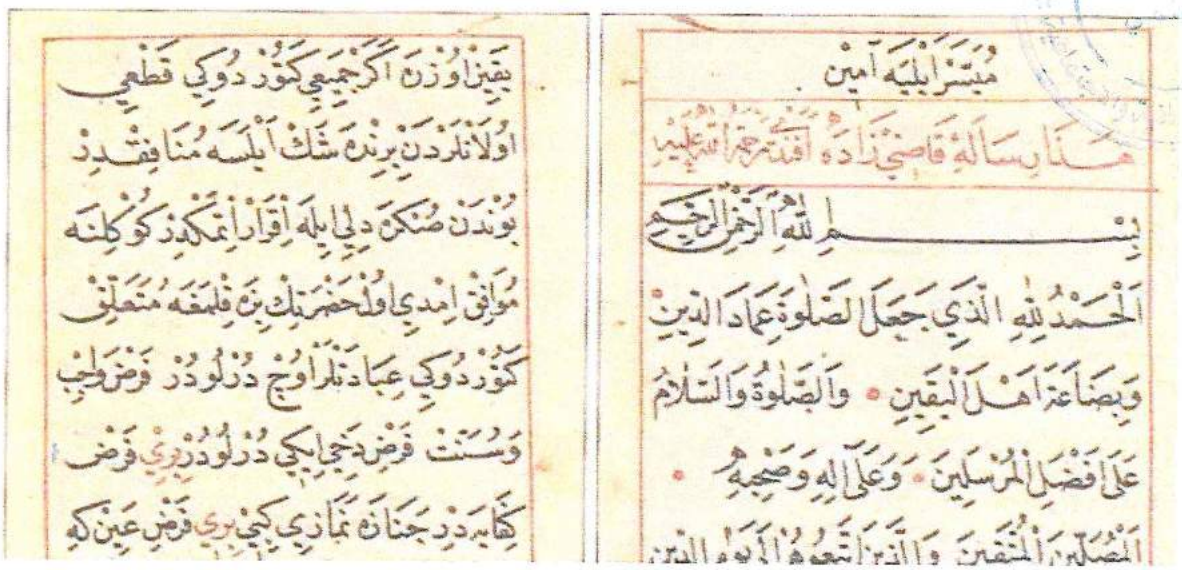

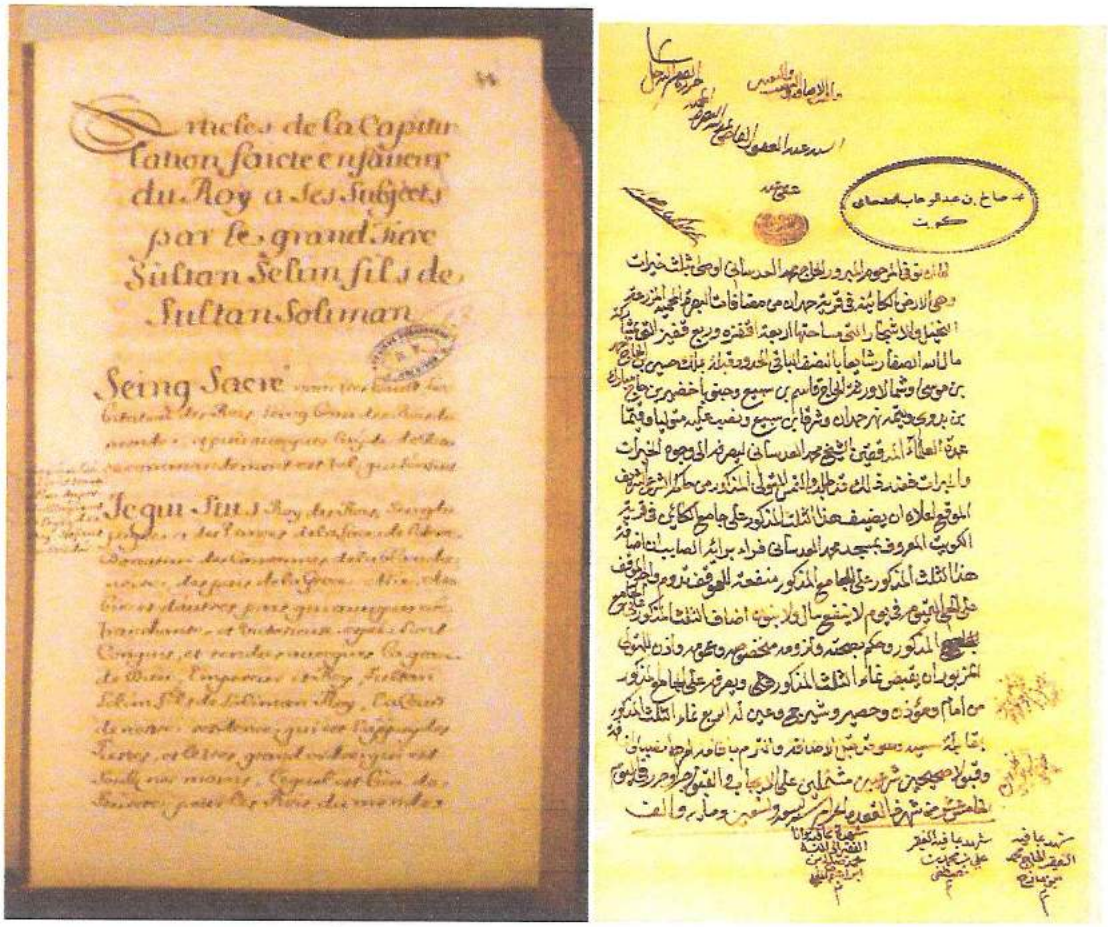

3-الوثائق المكتوبة المصورة: هي عبارات عن رموز وكيانات محسوسة تكشف عن العمليات الاجتماعية والمعاني والقيم مثل عقود الزواج القديمة.

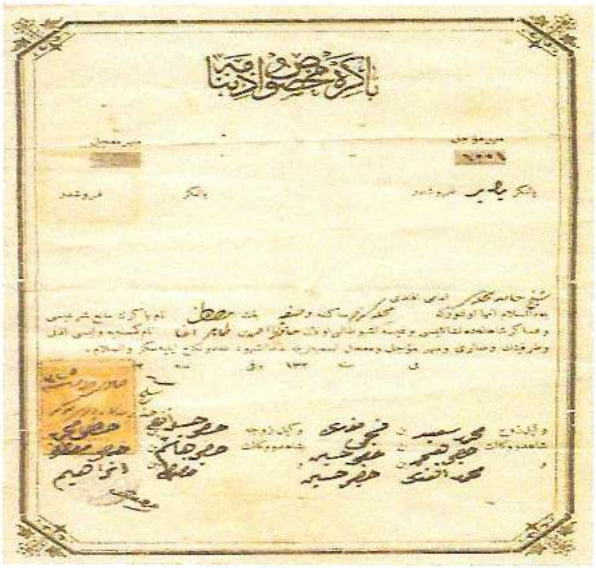

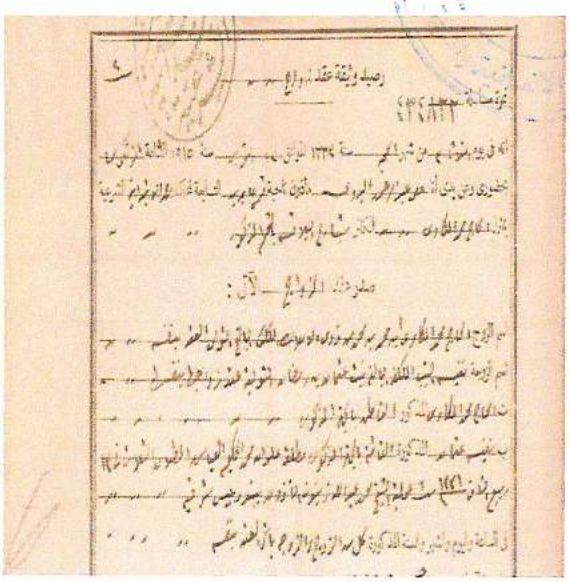

4- **الرموز والكتابات الجدارية:** في الكهوف مثلا كتلك الموجودة في الأهرامات المصرية أو الجداريات المنقوشة التي اكتشفها علماء الآثار في أحد الكهوف الصينية ، التي تظهر سبعة حوادث من الجفاف من عام 1520 إلى غاية 1920 موثقة في الكتابات الحائطية والتي تتحدث عن مجاعات وعدم الاستقرار الاجتماعي الذي سيستمر إلى قرون طويلة هذا حسب قراءات المختصين لهذه الجدارية الموضحة في الأسفل.

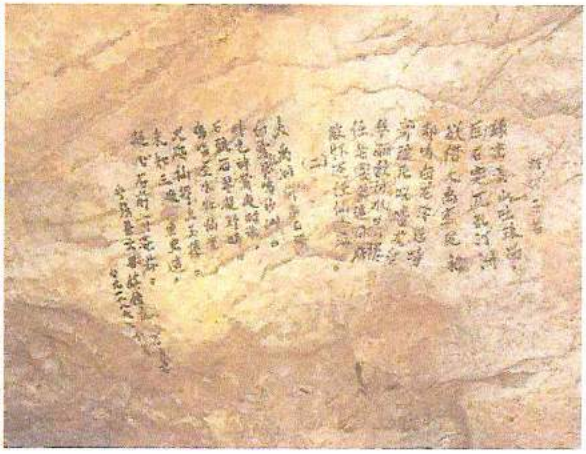

ومن خلال ما سبق، يمكن القول أن تقنية تحليل الوثائق (تحليل محتوى الوثائق) هي تقنية خاصة بالوثائق سواء كانت مجسدة أو مصورة أو مكتوبة ، فإذا ارتبطت بالمجسد والمصور من الوثائق كالآثار والنقوش تحولت في بعض الأحيان إلى ماحظة معمقة، وإذا تعلقت بالمكتوب فإنها تنتهج دائما التحليل كالرسائل الرسمية وعقود الزواج الموضحة أعلاه وغيرها من الوثائق المكتوبة، وهذه التقنية مهمة جدا في البحث الإثنوغرافي إذا تعلق الأمر بما ألفه العلماء في هذا الميدان، ولهذا فعند قراءة أي وثيقة على الباحث الإثنوغرافي الالتزام بما يلي:

-انتقاء الوثيقة المفيدة.

-تحديد طبيعتها وتعريفها.

-قراءتها قراءة متعمقة في تفاصيلها.

-التعرف على لغتها.

-الالتزام بالموضوعية والبعد عن الذاتية والأحكام المسبقة أثناء قراءة وثيقة ما.

-استخراج ما بها من معلومات تتناسب وموضوع البحث.

خامسا-الصورة الفوتوغرافية:

لم يكن نقل الصورة البصرية باعتماد النظام اللغوي الرمزي حكرا على الأدباء والشعراء، بل اشترك معهم في ذلك الاثنوغرافيون، حيث ارتبط ظهور الاثنوغرافيا بالرحلات الاستكشافية والاستعمارية التي كانت تدخل إلى أغوار ما أسموه " المجتمعات المتوحشة" وكانت هذه الرحلات عبارة عن عمليات مسح يقترب فيها الرحالة إلى أدنى حد ممكن من "البدائي" وقد كانت الكلمة وسيلة الباحث الوحيدة لتحقيق رغباته وغاياته، فاعتمد قلمه ومذكراته لوصف الانسان " البدائي" ولنقل صورة بصرية فيها كل التفاصيل المحيطة به.

ثم اعتمدت هذه الرحلات على " الأساليب المتاحة في ذلك الزمن للإيضاح البصري الذي يقرب الصورة ويثري الوصف ويساعد على مزيد من الفهم، فكانت مؤلفات الإثنوغرافيين تحتوي رسوما وصورا تفصيلية ودقيقة لمظاهر حياة هذه المجتمعات تنجز باليد، ونذكر في هذا الصدد الرسومات اليدوية التي قدمها المستشرق والمترجم وعالم اللغويات البريطاني " إدوارد وليام لين" " Edward William Lane " (1801-1876) في كتابه " المصريون الحديثون" الذي نشره سنة 1836 والذي اعتبر أنذاك أفضل وصف قدّم عن حياة الشرقيين والبلاد الشرقية، وتواصل اعتماد هذه التقنية حتى بعد ظهور الصور الفوتوغرافية التي أصبحت بديلا عن الرسوم والصور اليدوية لم ينتشر استخدامها إلا تدريجيا. فالكلام المنطوق في حاجة ماسة لكلام صامت، كلام الصورة [1].

ومنذ أواسط القرن التاسع عشر (19) اعتمد التصوير اليدوي، ثم الفوتوغرافي في الأنثروبولوجيا الفيزيقية، وفي الإثنوغرافيا الثقافية المادية (لتصوير البيوت وقطع الأثاث والأزياء والتحف وغيرها).وفي مجالات أخرى ضمن علم الاجتماع ، ومن المهم هنا الإشارة إلى " هاورد بيكر" " H.Becker" الذي اعتبر أن لعلم الاجتماع والصورة الفوتوغرافية لهما تاريخ الميلاد نفسه تقريبا، خاصة إذا اعتبرنا أن ميلاد علم الاجتماع كان مع نشر عمل " أوغست كونت" فعندما كان هذا الفيلسوف الوضعي يضع الأساسيات الأولى لعلم الاجتماع الحديث، كان " لويس داغير"

" L.Mandé Daguerre " (1787- 1857) مبتدع النظام التقني للتصوير الفوتوغرافي سنة 1839 يضع أمام العامة إمكانية إنتاج صور من خلال تقنية تثبيتها أو طبعها على قطع معدنية، إضافة إلى ذلك فإن " بيكر" اعتبر أن الرجلين اشتغلا منذ البداية على مشاريع متنوعة ومن بينها استكشاف المجتمع. فالصور تدقق الجزئيات التي لا يتمكن نظام اللغة الرمزي من أن يوحي بها، وتقرّب تفاصيل المجتمعات الموصوفة إلى ذهنية

[1] سعاد عالمي، **مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري**، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2004، ص 35

مجتمعات الدراسة أو المستكشفة، ويرى آخرون أن التصوير يتفوق على اللغة بقدرته على محاكاة الأحداث والواقع.[1]

عند هذا المستوى من الترابط بين الصورة والاستكشاف الاجتماعي كان لابدّ أن تظهر إشكاليات حول العلاقة بين اللغة والصورة،:

فهل تعوض الصورة اللغة في الوصف الإثنوغرافي؟

وهل للصورة بمفردها قدرة على تبليغ مراد الباحث؟

وهل من الممكن انكار قدرة اللغة على نقل صور بصرية تحاكي الواقع؟

لقد أثارت تلك الإشكاليات جدلا، فقد تبنّى البعض رأي الشاعر الفرنسي (شارل بودلير" C.Baudelaire " (1821-1867) مثلا الذي عبّر عن ثقته بقدرة الكاتب على وصف العالم الواقعي من خلال اللغة، خاصة وأن الكلمة عندما تصبح شيئا، فإنه لا يكون عليها أن تنسخ شيئا بل تجعل المرئي غير مرئي شيئا غائبا أو مفقودا[2]، وهو ما يجعل الكلام المنطوق في حاجة ماسة لكلام صامت، كلام الصورة[3]، في حين رأى البعض الآخر وعلى العكس من ذلك، أن اللغة بإمكانها أن تطور الصورة ليتم إدماج المرئي داخل المقروء.

لقد رأى أصحاب الموقف الأخير أن الصورة تدقق الجزئيات التي لا يتمكن نظام اللغة الرمزية من أن يوحي بها وتقرب تفاصيل المجتمعات الموصوفة إلى ذهنية مجتمعات الدراسة أو المستكشفة.

ويرى آخرون أن التصوير يتفوق على اللغة بقدرته على محاكاة الأحداث والواقع[4]، وهو ما يعني أن كلا من اللغة والصورة نظام علامات مستقل عن الآخر، وأنهما يساهمان كل بطريقته في إنتاج المعنى المرتبط بمجتمع معين وموجه لمتلقي أو مستقبل قارئ أو مشاهد من المجتمع نفسه، أو من مجتمع مختلف.

ولكن تجارب الاثنوغرافيين أثبتت أن الصورة المرافقة لوصف لغوي تساعد على الاقتراب من الواقع بدل تفاصيله، وبالمقابل لا يمكن فك شفرة أيّة صورة والتعبير عنها دون أن يستثمر في ذلك الرصيد اللغوي الوصفي والتعبيري، وهو ما يجعلنا نعتقد أن العلاقة بين الكلمة المكتوبة والصورة في البحث الإثنوغرافي هي علاقة تكامل[5] خاصة مع غياب التعارض بين عمق المعنى والكثافة الحسية، فالكلمات تقذف بنا إلى الأمام ، في حين أن الصورة تقذف بنا إلى الوراء[6]، فرؤية صورة ما تجعلنا نبحث في كل قدراتنا المدّخرة لفهمها وإدراكها، ويتطلب منا ذلك فهم التاريخ والسياسة والاقتصاد، وهي كلها أشياء تردّنا إلى الخلف، في حين أن المكتوب يقرأ ويفهم من خلال

---

[1] ليوناردو دافينشي . **نظرية التصوير**، ترجمة وتقديم: عادل السيوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 2005، ص 33.
شاكر عبد الحميد. **عصر الصورة السلبيات والإيجابيات والآداب**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2005، ص ص 173-176.[2]

[3] سعاد عالمي، مرجع سابق، ص 35

[4] ليوناردو دافنشي، مرجع سابق، ص 33

[5] عن: سميرة شوشان وآخرون. **علوم الاجتماع المرئية عرض لمسارها**، مجلة انسانيات، عدد مزدوج 81/80 ، سبتمبر 2018، ص 70 نقلا Ferchiou.S. Rhétorique du regard l'anthropologie visuelle, Sciences sociales , Sciences Morales, ALIF, IRMC.1995.pp126-128

[6] سعاد عالمي، مرجع سابق، ص 54

تسلسل الأحداث والتشوّق لمعرفة كل ما هو آت، هذا القول يتفق مع من يعتبر أن قراءة الصورة ليست إلا تأويلا[1].

ومهما يكن من أمر، فإن الصورة هي بمعنى نص يحدد باعتباره تنظيما خاصا لوحدات دلالية متجلية من خلال أشياء أو سلوكات أو كائنات في أوضاع متنوعة، إن التفاعل بين هذه العناصر وأشكال حضورها في الفضاء وفي الزمان يحدد العوالم الدلالية التي تحملها الصورة، فالصورة الفوتوغرافية خلافا للنص الذي يستند إلى اللغة في إنتاج مضامينه لا تستند في إنتاج دلالاتها إلى عناصر أولية مالكة لمعاني سابقة (الكلمات مثلا)، وإنما تستند إلى تنظيم يستحضر السنن التي تحكم هذه الأشياء في بنيتها الأصلية[2]، وهو ما يعني أن الصورة أو اللقطة بوصفها مجموع صور متتالية لا يمكن تجزئتها إلى مقاطع أو خطوط قابلة للمقارنة مع الكلمات والأصوات.

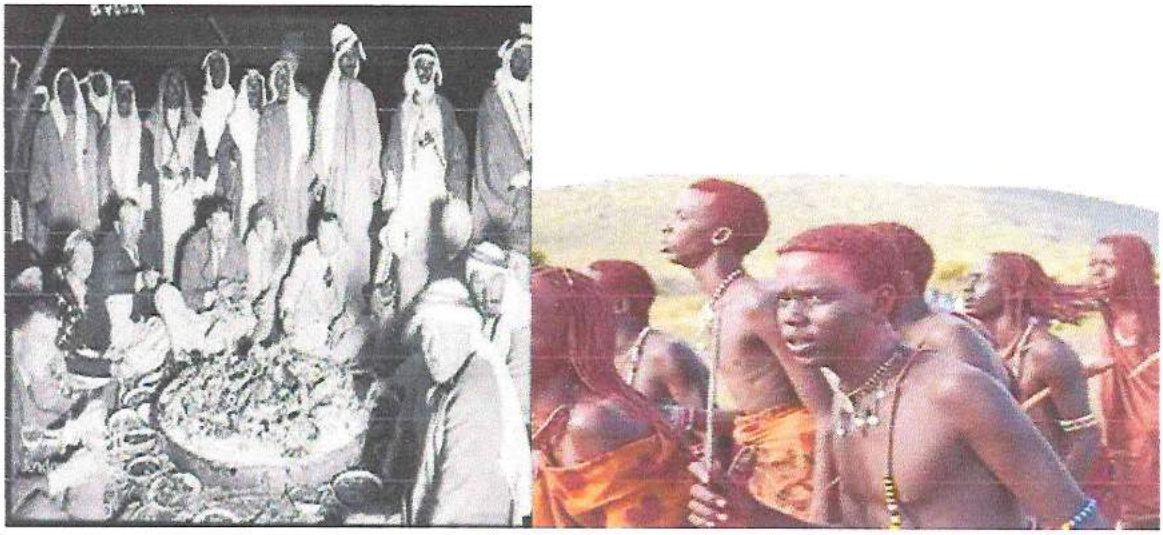

أهمية الصورة الفوتوغرافية في الحقل الإثنوغرافي:

لقد حرص الاثنوغرافيون على نقل أدق تفاصيل الواقع المحيط بهم مما جعل التصوير الفوتوغرافي أكثر الوسائل شفافية ومباشرة في الاقتراب من الواقع[3]، وقد تمكن هذا الأسلوب الجديد من التحرر من قيود الصورة الانطباعية الجميلة إلى التركيز على الواقع بصرف النظر عن جماله أو قبحه، وقد يسّرت الصورة الفوتوغرافية في البحوث الإثنوغرافية الميدانية انتقال الباحث من نقل الصور لغويا ليتناولها بالدرس في مرحلة لاحقة، إلى استخدام الصور الفوتوغرافية المتتابعة لتثبيت ملاحظاته ومشاهدها بتفاصيل أدق وأغزر وأكثر إثراء للبحث، ونتيجة لذلك تعاظمت أهمية الصورة الفوتوغرافية التي يتكون منها الشريط في نقل جزئيات طقوس الممارسات الثقافية، فالصورة

---

[1] المرجع نفسه، ص 55

[2] سعيد بن كراد. **سيميائية الصورة الإشهارية، الاشهار والتمثلات الثقافية**، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2006، ص 31.

[3] شاكر عبد الحميد، مرجع سابق، ص 403.

الفوتوغرافية الإثنوغرافية تصف لنا كل جوانب الحياة الاجتماعية، خاصة وأن الانسان يبثّ ويتلقى الدلالات بجسمه، وبالإشارات الحركية وبالنظرة وباللمس والصراخ والرقص والحركات الصامتة، وكل أعضائه الجسمية يمكنها أن تغدو أعضاء للبث والتوصيل والتواتر. فالمادة التي يجمعها الباحث بواسطة التصوير الفوتوغرافي يمكنه الانتفاع بها فقد تكون مكملة للملاحظة.[1]

فالصورة تحتل مكانة وحيزا هاما في حياة الشعوب لما لها من دلالات عميقة ومؤثرة وما تحمله من أفكار ورسائل كتلك الصور الفوتوغرافية التي تنقل لنا ثقافات الشعوب وعاداتهم وتقاليدهم. أو تلك التي تصف لنا الآثار والتحف القديمة وغيرها من الصور.

كما اهتم الإثنوغرافيون بتصوير الآثار والتحف الفنية القديمة التي تعود إلى العصور والعهود القديمة التي تعاقبت على منطقة معينة من الأرض، فالصورة الفوتوغرافية تساهم في معرفة وفهم طريقة حياة الشعوب والأمم البائدة كالحضارات القديمة، وكيف تطور الانسان عبر التاريخ، فلولا تعاقب صور هذه الآثار والتحف لما عرف الانسان المعاصر عادات وتقاليد ومعتقدات الشعوب القديمة وطريقة عيشها.

[1] محمد الجوهري. **علم الفولكلور دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية**، مكتبة النصر للنشر والتوزيع، ط6، ج1، القاهرة، 2004، ص 267.

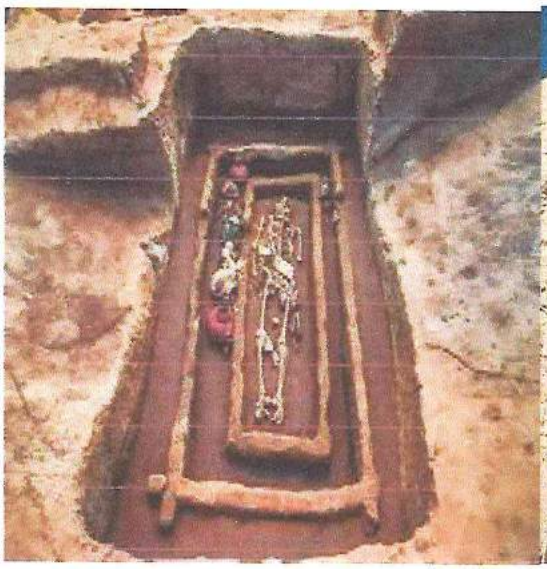
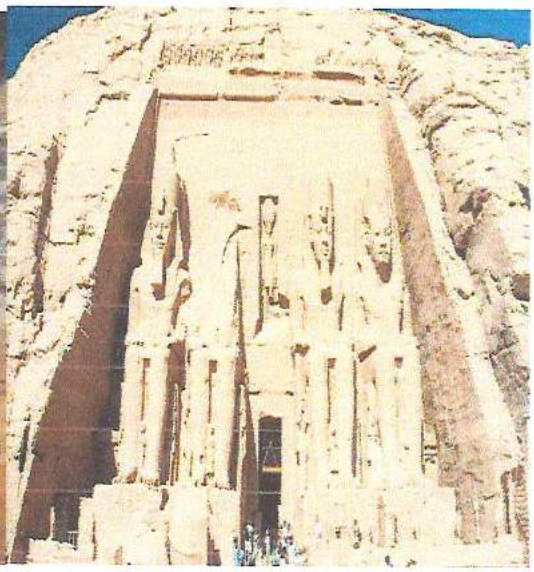

إن اعتماد الباحث الإثنوغرافي للصورة الفوتوغرافية في عمله الميداني يمكنه من إدراك أعمق للحياة الاجتماعية في المحيط الذي يعمل فيه خاصة وأنه ثمة قسم واسع من الحياة الاجتماعية والسيرورات المعرفية لا يمرّ إلاّ عبر اللغة، بل يصعب التعبير عنه بطريقة شفوية حسب عالم الاجتماع والمصور الأمريكي " دوغلاس هاربر" " D.Harper " 1960، وهذا هو سر اقتناع علماء الاثنوغرافيا والأنثروبولوجيا والتاريخ بأن الصور الفوتوغرافية تساعد على تجميع المعطيات وتمكن من رؤية تفاصيل لا يمكن للملاحظ بالعين المجردة معاينتها وتثبيتها من أجل تحليلها[1]، من جهة أخرى فالباحث الذي يستخدم الصورة الفوتوغرافية يصبح بإمكانه أن ينظر إلى الواقع من زوايا مختلفة في الآن نفسه، ولذلك قال مخرج الأفلام الوثائقية الروسي " دزيغا فيرتوف": " لا تنقلوا المناظر كما تتلقاها الأعين" إن إمكانية إعادة المعاينة وفي بعض الأحيان إعادة بناء وضعيات الملاحظة وتعميق النظر فيها كفيلة بإيصال الباحث إلى نتائج بحثه.

[1] سميرة شوشان وآخرون، مرجع سابق، ص 72

وبذلك مكّن اعتماد الصور الفوتوغرافية الباحثين من توثيق العديد من الوقائع والمعطيات، اعتمد بعضها وثيقة شارحة لبحوثهم الكتابية، فيما وظف البعض الآخر في إنتاج أفلام وثائقية أدرجت ضمن البحوث الأنثروبولوجية، ولذلك تعتبر المادة الاثنوغرافية المصورة التي يتم جمعها حجر الأساس لانطلاق بحوث أنثروبولوجية عديدة يمكن أن تشمل دراسة العلاقات بين الثقافة وحركات الحياة اليومية، كما يمكن أن تسمح بدراسة الصورة بوصفها نتاجا ثقافيا للمجتمعات.

6- استخدام التصوير السينمائي (الصورة المتحركة) في البحث الاثنوغرافي

لقد تحفظ علماء الأنثروبولوجيا على اعتماد منتوجات الصورة المتحركة التي كانت قد بدأت بفرض نفسها على التخصصات العلمية المختلفة، وإذ لم يحصل اجماع حول المزاوجة بين البحوث الميدانية الإثنوغرافية واستخدام الصورة السينمائية للتوثيق والتسجيل ووالصف، فقد ظهر " تيار محافظ" تمسك باعتماد اللغة ولاشيء غير اللغة في وصف حياة الشعوب ودراسة ثقافتها ، ومع ذلك كرر عدد من الباحثين والمولعين بالتصوير انجاز أفلام وأشرطة إثنوغرافية لفتت الانتباه إلى أهمية اعتماد محامل غير اللغة المكتوبة وإلى ضرورة إخراج العلوم الاجتماعية والأنثروبولوجية من عزلتها الأكاديمية وتيسير رواجها لدى المختصين وفي كامل أنحاء دول العالم.

إن اعتماد الباحث الإثنوغرافي على الأدوات السمعية البصرية في عمله الميداني يمكنه من إدراك أعمق للحياة الاجتماعية في المحيط الذي يعمل فيه خاصة وأنه ثمة قسم واسع من الحياة الاجتماعية والسيرورات المعرفية لا يمكن إذا عبر اللغة، بل يصعب التعبير عنه بطريقة عشوائية.[1]

تبلورت الأنثروبولوجيا المرئية أو الفيلم الوثائقي الأنثروبولوجي جراء تفاعل الممارسات الإبداعية ومثيلاتها التنظيرية امتزجت فيه السينما كفن والأنثروبولوجيا كعلم بشكل تقاطع فيه البعدين العلمي والجمالي، وبفضل رجال السينما وعلماء الأنثروبولوجيا الذين جعلوا من الكاميرا أداة لإنتاج المعرفة، إذ مزجوا بين تقنيات السينما وبعض خطوات البحث العلمي (كالملاحظة مثلا) ومناهج البحث الأنثروبولوجي الموظف للصورة السينمائية التي ساهمت في إثراء المعرفة الإنسانية بقدرتها على تسجيل ثقافات الشعوب، موثقة للذاكرة الانسانية، حيث تمكنت من حفظ ممارسات سوسيو-أنثروبولوجية لجماعات ثقافية وإثنية.

[1] أوجيه، مارك، جان بول، كولاين، مرجع سابق، ص 56

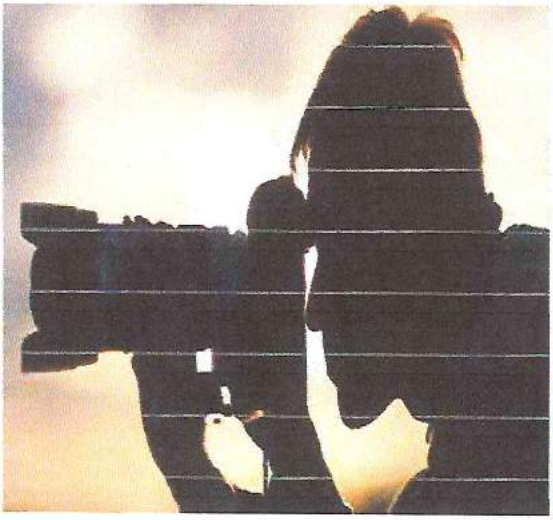

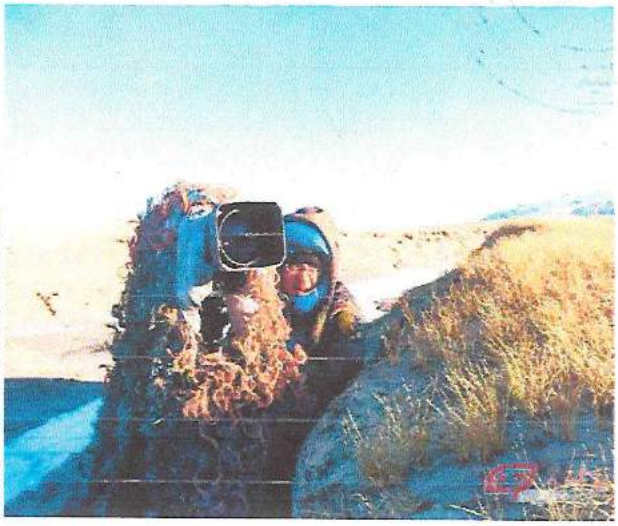

الإضافات التي أدخلتها الصورة السينمائية على علم الإثنوغرافيا:

تقترب الصورة الإثنوغرافية المتحركة من شمول مناحي الحياة الاجتماعية خاصة وأن الانسان يبث ويتلقى الدلالات بجسمه وبالإشارات الحركية وبالنظرة والسنن والإشارات وغيرها من الإيحاءات الدلالية التي تصف حياة الشعوب وثقافتها. ولهذا يعتبر الفيلم الإثنوغرافي وسيلة قادرة على توضيح بنية النسيج الاجتماعي وتكوينه ودراسة ظواهره باعتباره وسيلة قائمة بذاتها وليست مجرد أداة مكملة للنص.

وعلى هذا الأساس قامت الأفلام الإثنوغرافية بكسر فكرة التمركز حول الذات بفتحها مجال الاطلاع على خصوصيات المجتمعات دون اختزالها في فكرة أو كلمة، وهو ما دعم فكرة ضرورة النظر إلى الثقافات المدروسة على أنها ثقافات مستقلة لا يمكن فهمها أو النفاذ إليها دون احترام قيمها وأنساقها. وبالفعل تميزت الأفلام الإثنوغرافية بكونها شكلا تعبيريا قادرا على نقل أدق تفاصيل وضعيات الأجسام وحركات الأيادي وأفعال الأفراد وإيماءاتهم ونظراتهم وتعابيرهم عن مشاعرهم وغيرها من مفردات الحياة اليومية. فالوسائل السمعية البصرية تمكن من تجسيم الصوت، وكذلك استعمال الموسيقى والتصوير بتقنية البعد الثالث وغيرها من المؤثرات.[1]

لذلك تخاطب الأفلام الوثائقية الإثنوغرافية احساس المتلقي وذكاءه، ولذلك قالت المصورة الفوتوغرافية الأمريكية " Sara Edwards Charlesworth "2013 : " أن سبب استعمالي ما يدعى عموما (صورا مملوكة) أي صورا مستمدة من الثقافة الشعبية، هو أني أرغب في وصف ومخاطبة حالة عقلية هي نتاج مباشر للعين في عالم مشترك". ذلك أن الفيلم، كما يصف يكشف، يخفي عناصر ضمنية مستترة، لأنه حسب عالم النفس "باتريك لاكوست "L.Patrick" "الفيلم يوحي ولا يفصح" فهو يخاطب في المشاهد جهازا شعوريا قادرا على فك رموز ومكونات اللاشعور عند الآخرين. ولقد أكد كل من مارك أوجيه وجان بول كولين أنه على الأنثروبولوجي السينمائي الفصل بين العمق والشكل خاصة، وأن تصوير فيلم إثنوغرافي يتطلب بعدا جماليا،

[1] سميرة شوشان، مرجع سابق، ص ص 73-74

فتأثيرات المعرفة لا تكون متاحة عبر المضامين فحسب، بل أيضا عبر الأصوات والصور والتقنيات والأسلوب، فإنجاز فيلم أنثروبولوجي يتطلب الاعتناء بتركيب جمله والبحث عن التعابير المناسبة، ضف إلى ذلك الإيقاع والرواية والشعور.[1]

يمكن تفسير القدرة الفائقة للأفلام الوثائقية الإثنوغرافية على مخاطبة الحواس، تمكنها من استعمال الصورة والصوت معا، إضافة إلى الموسيقى،لا والتصوير بتقنية البعد الثالث وغيرها من المؤثرات التي تعطي للفيلم الإثنوغرافي قوى تعبيرية غير عادية، تضع المشاهد في قلب الحدث، وتكون فعالة من الناحية الفنية ومؤثرة من الناحية السيكولوجية.

بالإضافة إلى الطريقة التصويرية، يستخدم الباحث الاثنوغرافي طرقا أخرى تتمثل فيما يلي:

سابعا: الطريقة الفونوغرافية:Méthode phonographique

ويقصد بها تسجيل الأصوات، ولا يقصد بذلك صوت الانسان فحسب، بل يجدر بالباحث تسجيل كل شيء بما فيها الموسيقى المحيطة، وضربات الأقدام والأيادي ...الخ باستعمال المسجلة أو الهاتف النقال ، ومن المهم أن يصاحب كل تسجيل ترجمة مع تعليق يسمح بتحويله إلى نص.

وانتقلت طريقة التسجيل الصوتي لدى الباحث الاثنوغرافي من الطريقة التقليدية باستعمال الجهاز الفونوغرافي إلى الأجهزة الحديثة المتطورة كالمسجلة والهاتف الذكي.

[1] مارك أوجيه، بول كولين. مرجع سابق، ص 62

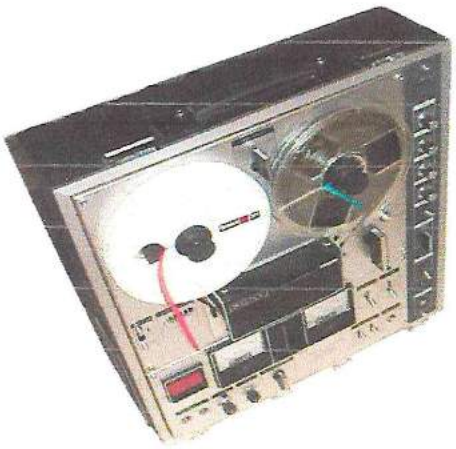

ثامنا: الطريقة الفيلولوجية: Méthode philologique

وهي طريقة التعرف على لغة الشعوب La langue indigène حيث يجد الباحث نفسه ملزما بتأسيس مجموعة كاملة من النصوص المسموعة، بما فيها النصوص اللفظية أو السوقية التي لا تقل أهمية ، فعلى الباحث نقل كل الكلمات الأصلية وتسجيل الموسيقى عندما يتعلق الأمر باللغات التي تحوي عادة لهجات، ومن جهة أخرى يمكن للباحث البحث عن أفضل طريقة لتعلم لغة البلد محل الدراسة من خلال البحث عن مخبرين قادرين على ذلك.

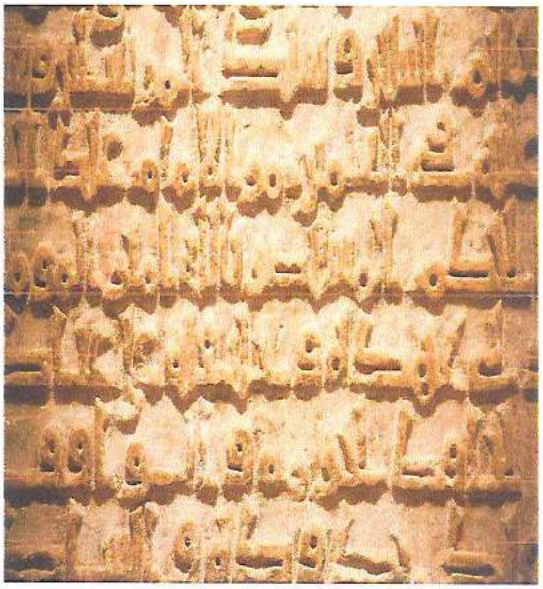

اللغة العربية (هي إحدى أكثر اللغات انتشارا في العالم)

اللغة الانجليزية (هي لغة عالمية بفعل العولمة)

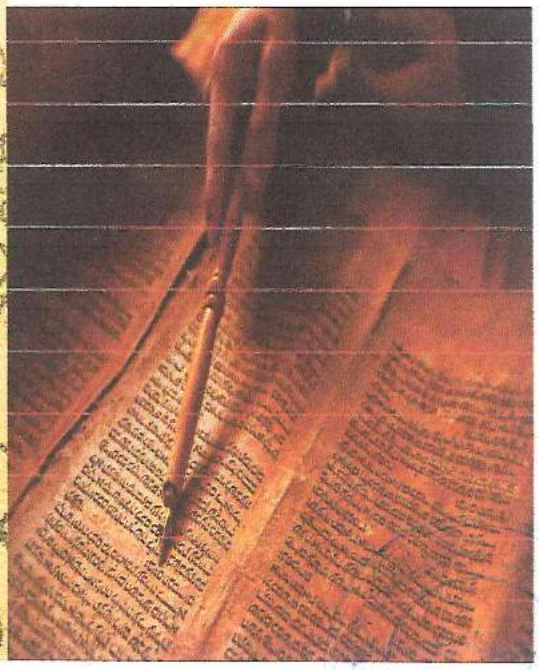

اللغة العبرية(انتشرت بعد توسع الاحتلال الصهيوني)

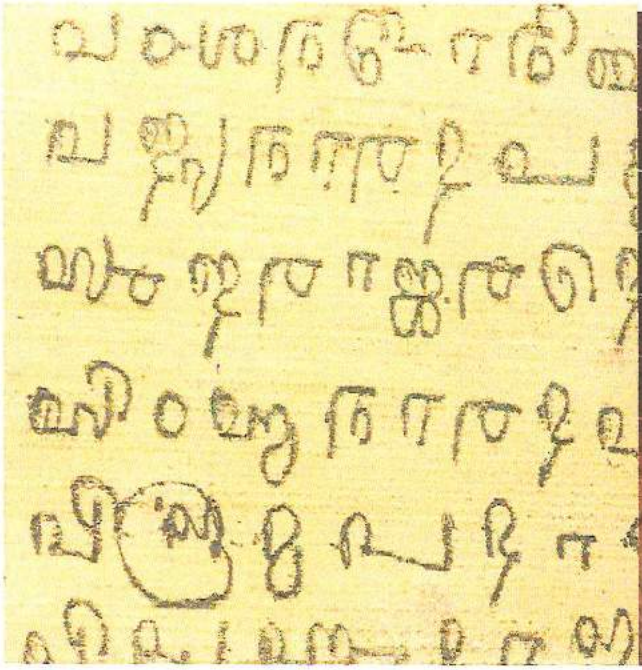

اللغة التاميلية وهي لغة مختلف الدول الآسياوية

اللغة اليونانية في اليونان وقبرص

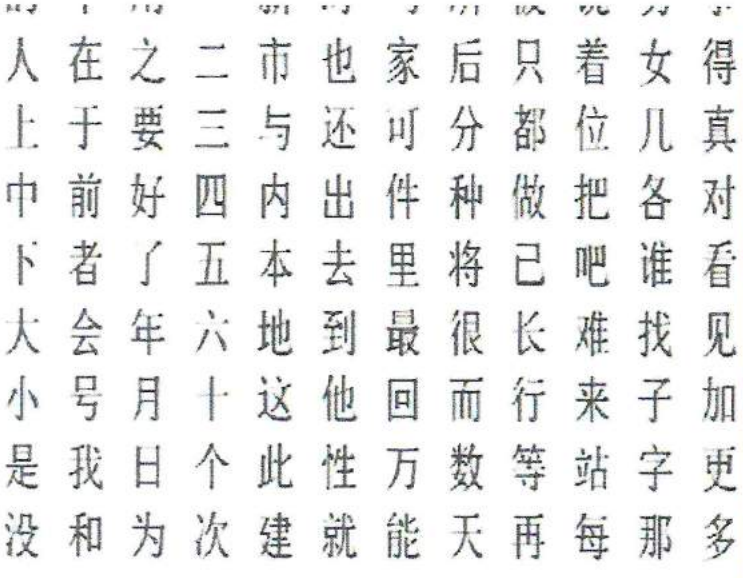

اللغة الصينية (تختلف لهجاتها أكثر من لهجات اللغة العربية)

إن تعلم لغات الشعوب ولهجاتهم يساعد الباحث الاثنوغرافي في القيام بأبحاثه من حقل الدراسة، فاللغات لديها أنظمة معقدة تحوي الكثير من القواعد والمفردات الجديدة، وتعلمها يعني يلزم العقل في التعامل مع هذا التعقيد بشكل سليم والالمام بها وبلهجاتها، بحيث يساعد تعلم اللغات ولهجاتها الباحث الاثنوغرافي إكتساب مهارات التواصل مع أكبر شريحة من المبحوثين والتعرف على ثقافاتهم وطرق عيشهم.

تاسعا: الطريقة السوسيولوجية: Méthode Sociologique

تقوم هذه الطريقة أساسا على تاريخ المجتمع المدروس ، حيث تجدر العودة إلى ثلاثة أو أربعة أجيال سابقة، كما تجدر دراسة تركيبة المجتمع والتركيز على تاريخ الأسر، باعتبار أن الأسرة هي الخلية الأساسية للمجتمع، وهي تعتبر النظام الاجتماعي الرئيسي، حيث أنها الوحدة الاجتماعية الوحيدة في المجتمع البشري التي تتداخل مع الأنظمة الأخرى، وهي تعتبر مركز كل التفاعلات الاجتماعية والسلوكيات والعلاقات الاجتماعية.

تطورت الأسرة بشكل ملحوظ وتطورت معها استخدامات وسائل الإعلام، ولعل من أسباب التطور الثورات العلمية والتكنولوجية التي حدثت في كل المجالات، فبعدما كان كل أفراد الأسرة الواحدة يشاهدون التلفاز بشكل جماعي، أصبحوا اليوم يعيشون العزلة داخل البيت الواحد، نظرا للافراط في استخدام الوسائط الجديدة التي أصبحت أحد السمات الرئيسية التي تميز عصرنا الحاضر، فكل فرد من أفراد الأسرة الواحدة يقضي ساعات طويلة لتصفح المضامين الإلكترونية بشكل منفرد ومنعزل عن باقي أفراد الأسرة، حتى أصبح استخدام هذه التكنولوجيات يخلق حالة من الإدمان الشديد لديهم، الأمر الذي أدى إلى خلق فجوة بين أفراد الأسرة الواحدة نتيجة لساعات الصمت الطويلة التي يقضيها هؤلاء في استخدامهم لهذه الوسائط الجديدة . وأصبحت هذه الظاهرة أو هذا الانتقال والتحول في استخدام وسائل الاعلام والاتصال بين الماضي والحاضر من أهم المواضيع التي يبحث فيها الباحث الاثنوغرافي للتعرف على علاقة الجمهور أو المستخدمين داخل الأسرة الواحدة بوسائل الاعلام التقليدية والجديدة وأهم المضامين التي تستقطبهم والبحث في تأثيرات هذه الاستخدامات على الروابط الأسرية والعلاقات الاجتماعية، وهذه التحولات تعتبر من أهم التحولات والتغيرات التي عرفتها الأسرة خلال مراحل تطورها.

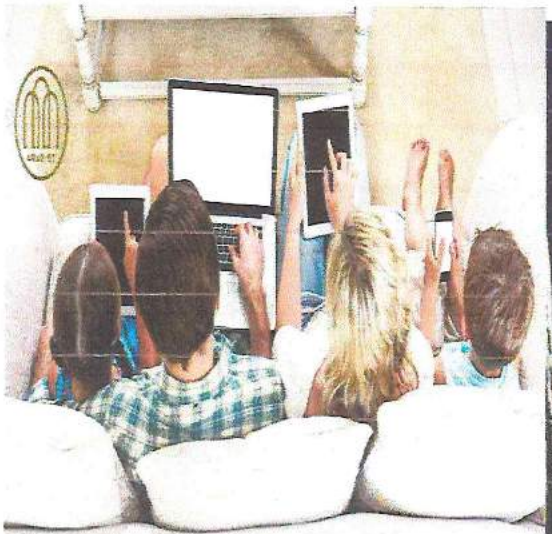

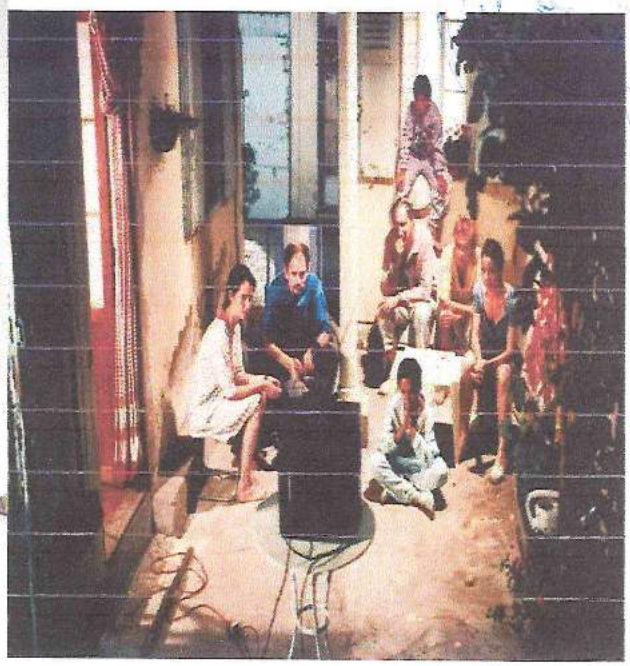

وعليه، يمكن القول أن استخدام أدوات المنهج الإثنوغرافي في دراسة الشعوب عامة ودراسة جمهور وسائل الإعلام ومستخدمي الوسائط الجديدة خاصة ، يرجع إلى طريقة استخدام هذه التقنيات والأدوات لدراسة الحقل البحثي التي تهدف إلى معايشة الباحث لهذه السلوكيات محل الدراسة، وتحليلها ووصفها عن كثب، وفي ظروفها الطبيعية، مما يكشف العديد من الحقائق العلمية التي قد لا تبرز للباحث باستخدام مناهج أخرى.

عاشرا: الطريقة الجينيالوجية méthode génétique

ظهر الأسلوب الجيني في القرن التاسع عشرفي سياق علم الأحياء التطوري، ويهدف إلى شرح ظاهرة بيولوجية ونفسية عن طريق دراسة نشأتها. وقد وضع"ريفر" قد وضع أسس هذه الطريقة وهو يعمل ضمن بعثة جامعة كمبرج عام 1898 ، وهي تقوم على أساس تتبع العلاقات بين الإخباري وسائر المرتبطين به قرابيا، وتسجيل ما يراه من بيانات تشمل الأسماء والأنواع وتواريخ الميلاد والزواج والطلاق والوفاة والإقامة وأنواع الروابط الزواجية والعمل، وغير ذلك من البيانات التي تفيد موضوع الدراسة ويقوم الباحث باستخلاص هذه المعلومات في مذكراته خلال العمل الحقلي، ثم يقوم بعد ذلك بتفريغها في أية صورة تساعد على فهم العلاقات وإلقاء الضوء على التنظيم الاجتماعي القائم، وعندما توضع هذه البيانات في صورة تخطيط هندسي، فإنها تعبر تعبيرا سريعا وواضحا عن العلاقات والارتباطات.[1]

[1] رحاب مختار، مرجع سابق، ص 99.

إثنوغرافيا الجمهور والمستخدمين: (نماذج لدراسات إثنوغرافية لجمهور التلفزيون ومستخدمي الانترنت)

بالإضافة إلى دراسات الباحث " دافيد مورلي" حول جمهور التلفزيون كوسيلة تكنولوجية منزلية، جاءت دراسات أخرى انتهجت المقترب الاثنوغرافي في دراسة جمهور الوسائل الإعلامية التقليدية ومستخدمي الوسائط الجديدة نذكر أهمها على سبيل المثال لا الحصر:

– **دراسة " باريوس" Barrios (1988)**[1] وهي دراسة إثنوغرافية لمشاهدي الأوبيرات الصابونية اللاتينية، والتي أجريت في فنزويلا على 13 أسرة، استخدم الباحث أداتي الملاحظة بالمشاركة والمقابلة ، من أهم نتائج الدراسة:

–أهمية الأوبيرا الصابونية اللاتينية بالنسبة للأسرة الفنزويلية فهي تعتبر من التراث الشعبي.

– اندماج مشاهدة التلفزيون في الروتين اليومي للأسرة الفنزويلية (الاستيقاظ من النوم في الصباح، أوقات تناول وجبات الطعام، أوقات أداء الواجبات المدرسية، والعودة من العمل...الخ.

–مشاهدة الأوبيرا لا تقتصر على جنس معين أو فئة عمرية معينة، وإنما كل أفراد الأسرة الفنزويلية رجالا ونساء، كبارا وصغارا مولعون بها.

– **دراسة الباحث "عبد الرحمن عزايري" (1998)** [2]قام بدراسة تحت عنوان "المقاربة الإثنوغرافية للتلقي المباشر للفضائيات التلفزيونية في وسط الأسر المغربية في ظل الخصائص الاجتماعية والثقافية للمجتمع المغربي، استخدم الباحث المقاربة الاثنوغرافية من خلال دراسة 12 أسرة مغربية واستعان بالتحليل الكيفي باستعمال أداة الملاحظة بالمشاركة كأداة أساسية. وتوصل الباحث إلى مجموعة من النتائج أهمها:

–يفضل أفراد الأسر المغربية مشاهدة البرامج التلفزيونية مشاهدة جماعية أكثر من المشاهدة الفردية، والتي تتم وفق ضوابط اجتماعية وثقافية تلعب دور في اختيار القنوات التلفزيونية والبرامج المشاهدة.

–البرامج التلفزيونية المشاهدة من طرف أفراد الأسر المغربية المدروسة هي برامج تم اختيارها حسب متطلبات الحياة اليومية للأفراد، ويتم تأويلها وفقا لسماتهم الثقافية والاجتماعية.

–استطاع التلفزيون أن يؤدي إلى ظهور سلوكيات جديدة في وسط أفراد الأسر المغربية سواء من حيث البرامج أو القنوات الوطنية خاصة في مجال العلاقات الاجتماعية.

---

[1] سميرة بلغيثية. **استخدام المقاربة الإثنوغرافية في بحوث جمهور وسائل الإعلام** ، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الانسانية والاجتماعية، مجلد 10، عدد 4، ديسمبر 2018، ص 753.

[2] Abderrahmane Ezzairi. **Approche ethnographique de la réception directe par satellite des télévisions transnationales en milieu familial marocain**, thèse doctorat, département de communication, Faculté des arts des sciences, Université de Montérial, Canada, 1998

دراسة Marie.EVE.Carignan (2008)[1] بجامعة كيبيك ، هذه الدراسة انتهجت نفس أسلوب "دافيد مورلي" في تحليل النشرات الاخبارية التي أجريت سنة 1980 ، والتي كان هدفها دراسة محتوى البرنامج التلفزيوني وتأثيره على المشاهدين، أجريت الدراسة الميدانية من شهر مارس إلى غاية شهر ماي 2006 ، حاولت الدراسة تحليل عينة من نشرات الأخبار على القنوات الفرنسية والكيبيكية الخاصة والعامة (France2-Radio Canada-TF1-TVA) والتي تستخدم نفس اللغة "اللغة الفرنسية" والهدف منها هو معرفة مدى مساهمة النشرات الاخبارية في هذه القنوات على نقل مجريات الأحداث في كلتا المجتمعين الفرنسي والكيبيكي ومدى الاهتمام بالبناء الاجتماعي في طريقة عرض محتوى نشرات الأخبار، إضافة إلى معرفة أوجه التشابه والاختلاف بين هذه النشرات والاستراتيجيات التأثيرية على جمهور المشاهدين انطلاقا من الافتراض الأساسي المتمثل في التأثير الكبير لهذه النشرات الناطقة بالفرنسية على صانعي القرار والسياسيين من جهة وعلى الجمهور المشاهد من جهة أخرى، عملت الباحثة على جمع المعلومات من الميدان (البيئة الفرنسية والبيئة الكيبيكية). اعتمدت الدراسة على نظرية " جورج جربنر" فيما يتعلق بتطبيق أدوات تحليل المحتوى التي تسمح بالتعرف على عناصر محتوى النشرات الاخبارية ومدى تأثيرها على الجمهور المشاهد. إضافة إلى استخدام تقنية الملاحظة بالمشاركة من خلال النزول إلى الميدان، وكانت النتائج مثيرة للانتباه وهي تقريبا متشابهة في كلتا البيئتين، أهمها:

-تمثيل الأقليات العرقية في المناسبات التي تقوم هذه القنوات بتغطيتها إعلامية وعرضها في نشرات الأخبار، إلا أن هذا التمثيل قليل جدا.

-النشرات في القنوات الكيبيكية تنقل بشكل مستمر المناسبات والأحداث اليومية بشكل مستمر، وهذا يدل على مدى تمثيل هذه القنوات للبناء الاجتماعي للمجتمع الكيبيكي.

-تنقل القنوات الفرنسية وتتناول الأزمات داخل البلاد والاحتجاجات ضد الحكومة الفرنسية خاصة القنوات الخاصة التي أصبح المشاهد الفرنسي يشاهدها باستمرار للتعرف على الأخبار المحلية.

-نجحت هذه القنوات سواء الفرنسية أو الكيبيكية في نقل مظاهر الحياة الاجتماعية للمجتمعين (الفرنسي والكيبيكي).

- أصبح المشاهد الفرنسي والكيبيكي يهتم بكثرة بنشرات الأخبار المقدمة في القنوات العامة والخاصة على حد سواء والتي تنقل له كل ما يتعلق بمجتمعه في كل المجالات خاصة (السياسية، الاقتصادية والاجتماعية).

[1] Marie.EVE.Carignan, **La construction sociale de la réalité par les bulletins d'information télévisés en France et au Québec : le cas de TF1, France 2, Radio-Canada et TVA**, Maitrise avec mémoire (Maitre es arts), Université du Québec a trois Rivières, 2008.

أما بالنسبة للدراسات الإثنوغرافية لجمهور التلفزيون في الجزائر سنذكر بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر:

-**دراسة وردة قراينية** بعنوان "**أنماط تلقي البرامج التلفزيونية لدى الأسرة الجزائرية**"[1]، قامت الباحثة بدراسة أنماط تلقي الأسرة العربية العاصمية الجزائرية باستخدام المنهج الاثنوغرافي والهدف من هذه الدراسة هو التعرف على عادات التلقي والتأويل الخاصة بأفرادها واختلاف تأويلات المضامين الإعلامية التلفزيونية بين أفراد الأسرة الواحدة من خلال السمات الديموغرافية (السن ، النوع ، درجات التدين ، العادات ، اللهجة ...) قامت الباحثة بدراسة اثنوغرفية على عينة تتكون من 08 اسر من مدينة غارداية كونه مجتمع يعيش داخل نسق اجتماعي وثقافي وسياسي وديني خاص به فهو متمسك بعاداته وتقاليده وعرقيته رغم التطور التكنولوجي ، اعتمدت الباحثة على أداة الملاحظة المباشرة والمقابلة النصف موجهة وتعتبر دراسة الباحثة " وردة قراينية " من الدراسات الأولى في الجزائر من حيث انتهاجها للمقترب الاثنوغرافي معتمدة على الأسرة كوحدة قاعدية للدراسة.

-**دراسة رزيقة حيزير** بعنوان "**إثنوغرافيا المشاهدة التلفزيونية مع الأقران في سياق الروضة**"[2] فقد كان لمجتمع الطفوله حظه من الدراسات الاثنوغرافية، حيث أجرت الباحثة دراسة ميدانية اثنوغرافية لعينة من أطفال ما قبل المدرسة بالجزائر العاصمة خلال فترة ديسمبر 2017 –ماي 2018، استخدمت في دراستها المنهج الاثنوغرافي بغية استنطاق تفاعلات أطفال الروضة مع البرامج الإعلامية الموجهة إليهم ومحاولة تفسيرها والتمييز بينها لتقديم تقرير مفصل يجعل من تجربة المشاهدة التلفزيونية الجماعية في سياق الروضة واقعا حيا ومعاشا وذلك من خلال الاعتماد على أدواتي الملاحظة بالمشاركة والمقابلة، وقد اختارت الباحثة روضة " au calinou " بالجزائر العاصمة لتكون الروضة التي تطبق فيها مجريات البحث، وقد شملت عينة الملاحظة 15 مفردة تتراوح أعمارهم ما بين 4 و5 سنوات (منهم 8 إناث و7 ذكور)، من أصل 60 طفل متواجدون في الروضة واختيرت العينة بطريقة عمدية ودامت الدراسة الإثنوغرافية مدة ستة أشهر.

وكخلاصة عامة للدراسة، هو أن للأطفال إدراك وذوق وأن للفروق الفردية دور هام في تحديد علاقتهم بالمشاهدة، وأنهم فئة اجتماعية تمثل جمهورا خاصا في أوضاعه وطرق مشاهداته وتفاعلاته العفوية والطبيعية، ولحظات مغامراته الجانحة مع المضامين التلفزيونية.

---

[1] وردة قراينية. **أنماط تلقي البرامج التلفزيونية لدى الأسرة الجزائرية– دراسة إثنوغرافية**، رسالة ماجستير، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2008.

[2] رزيقة حيزير. **اثنوغرافيا المشاهدة التلفزيونية مع الأقران في سياق الروضة دراسة ميدانية لعينة من أطفال ما قبل المدرسة بالجزائر العاصمة** خلال ديسمبر 2017– ماي 2018، مجلة الاتصال والصحافة، المجلد 6، العدد 1، 2019

أما بالنسبة للدراسات الاثنوغرافية لمستخدمي الوسائط الجديدة سنذكر بعض النماذج فيما يلي:

-دراسة كل من " دانييل ميلر ودون سلايتر" " Daniel Miller& Don Slater "

(الانترنت من مقترب إثنوغرافي The Internet : An Ethnographic Approach)

تمحورت الدراسة حول استخدام شبكة الانترنت في جزيرة "ترينيداد" ، لم يهتم الباحثان بآثار هذه الوسيلة الإعلامية الجديدة على سكان الجزيرة، بل بحثا عن كيفية سعي ثقافة محلية إلى إيجاد مكان لها يتناسب مع خصوصياتها المحلية، وقد اختار الباحثان الجزيرة نظرا لتوفر الظروف والشروط المناسبة للدراسة الاثنوغرافية (لأنها محدودة من حيث المساحة، كما أنها محدودة من حيث التطور في مجال استخدام الانترنت باعتبار أنه لم يمض على دخولها إلى الجزيرة سوى سنوات قليلة ولمحدوديتها أيضا في الاقتصاد والسياسة) دامت هذه الدراسة خمسة أسابيع.

أهم النتائج التي توصل إليها الباحثان:

-سمحت الانترنت لسكان جزيرة "ترينيداد" التعبير عن هويتهم سواء على الصعيد الشخصي أو الاجتماعي (القرابة، الدين) ومكنتهم من الحفاظ على العلاقات الشخصية من خلال خدمة الدردشة Chat.

-ساعدت الانترنت على تعزيز الهويات التقليدية والعائلية والدينية والوطنية.

-كان لاستخدام الانترنت دورا كبيرا في تنمية المشاركة الاجتماعية ، إذ جعلت سكانها يشعرون بالانتماء إلى المجتمع الدولي.

دراسة "بيتريز" " **Beatriz Lia .Avila .Mileham** "[1] في الولايات المتحدة الأمريكية تحت عنوان " On line infidelity in Internet chat room : An Ethnographic Exploration "

تناولت الدراسة طبيعة التفاعلات الاجتماعية التي تتم عبر منتديات الدردشة ودورها في تغيير النسيج الاجتماعي وفي بناء علاقات عاطفية بين الجنسين، كما ركزت على انعكاس ذلك على العلاقات الزوجية.

توصلت الدراسة إلى نتائج أهمها:

-أدت منتديات الدردشة إلى التأثير في العلاقات الزوجية من خلال تقليل الوفاء بين الزوجين.

-احداث عدة مشاكل اجتماعية داخل الأسرة (بين الزوجين).

-التأثير على النسيج الاجتماعي وبالتالي التفكك الأسري الذي يؤثر على كلا الطرفين (الزوج والزوجة).

[1] Beatriz Lia .Avila .Mileham, " **On line infidelity in Internet chat room : An ethnographic exploration"** , Computer in Human Behavior, Volume 23, Issue1, January 2007

دراسة " أكايا" " **Aslihan Akkaya** " في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 2012 تحت عنوان " Devotion and friendship through Facebook : An ethnographic Approach to language, community, and identity performances of young Turkish-American women" .[1] قامت الباحثة بدراسة تفاعل الفتيات التركيات الأصل المقيمات في الولايات المتحدة الأمريكية باستخدام المقترب الاثنوغرافي منطلقة من فهم سيميائية الخطاب ودلالات الأيقونات. توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها:

-أن الفتيات التركيات الأصل بالرغم من بعدهن عن بلدهن الأصلي (تركيا) إلا أنهن لا يزلن محافظات على التقاليد والقيم التي تكفلها المواضيع المطروحة للنقاش من خلال تلك المجموعة.

- بروز قيم كالصدق والوفاء والصداقة والإخلاص من خلال تعاملاتهن مع بعضهن البعض.

-استعمال لغة اتصالية تفاعلية خاصة تركز على الرموز والأيقونات تجعلهن متميزات عن الآخرين، كما تمنحهن خصوصية معينة إذ تستخدمن رموزا صعبة الفهم وغير واضحة على من هو خارج المجموعة.

أما بالنسبة للدراسات الإثنوغرافية الافتراضية التي أجريت في الجزائر نأخذ بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر:

-دراسة أمال عساسي بعنوان " إثنوغرافيا مستخدمي الفيس بوك في المجتمع الجزائري، دراسة اثنوغرافية لعينة من مشتركي المجموعات الأمازيغية بالفيس بوك " (2015)[2]، حاولت الباحثة من خلال هذه الدراسة البحث في كيفية استخدام الفيس بوك للحفاظ على الهويات والثقافات المحلية في ظل انتشار فكر العولمة، ومن أجل تفعيل هذه المحاولة ركزت في الدراسة على فضاء المستخدمين المبحرين الجزائريين من خلال المجموعات الافتراضية الأمازيغية. اختارت عينة منهم وكانت المعاينة قصدية متكونة من 109 مفردة مراعية البيانات الديموغرافية المتمثلة في (الجنس، السن، المستوى التعليمي ومكان الإقامة والأصل الإثني) من أهم أهداف الدراسة:

---

[1] Aslihan Akkaya. **Devotion and friendship through Facebook: An ethnographic Approach to language, community, and identity performances of young Turkish-American women**", Florida International University, January 2012.

[2] أمال عساسي. **إثنوغرافيا مستخدمي الفيس بوك في المجتمع الجزائري- دراسة اثنوغرافية لعينة من مشتركي المجموعات الأمازيغية بالفيس بوك**، 2015. رسالة ماجستير، قسم علوم الاعلام والاتصال وعلم المكتبات، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة باتنة 1.

-معرفة دور التعرض واستخدام مجموعات الفيس بوك الأمازيغية بشكل خاص "الشاوية" في تفعيل العلاقات الاتصالية وتحقيق الاشباعات كالحفاظ على الهوية الأمازيغية في ظل انتشار الفكر العولمي الذي تكفله التكنولوجيات الحديثة.

-الوقوف على عادات وأنماط استخدام مجموعات الفيس بوك لدى الجزائريين والتي تسمح لهم بتشكيل علاقات اتصالية.

-معرفة مدى تأثير مضامين البيئة الافتراضية بالمجموعات الأمازيغية بالفيس بوك في البيئة الواقعية.

استخدمت الباحثة الملاحظة بالمشاركة الالكترونية من خلال الانضمام للمجموعات الأمازيغية الافتراضية، حيث قامت ببناء شبكة ملاحظات عرضت من خلالها بشكل مفصل جميع التفاعلات التي تحدث بين الأعضاء حول مواضيع مختلفة تم تداولها بين المجموعات الأمازيغية الشاوية المتواجدة بالفيس بوك، كما اعتمدت على أداة المقابلة الافتراضية الموجهة مع 109 مفردة والتي تمت مقابلتها حالة بحالة.

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج نذكر أهمها:

-أكبر عدد من المبحوثين يستخدمون الفيس بوك بشكل مكثف عدة مرات في اليوم ولمدة ثلاث ساعات فأكثر، وهذا ما يسمح لهم بإقامة علاقات صداقة.

-أهم المجموعات الأمازيغية التي تلقى اهتمام من قبل الجزائريين: (مجموعة ملتقى الشاوية، مجموعة شاوية وافتخر، مجموعة الشاوية عبر التاريخ، مجموعة BLED CHAWI، ومجموعة Ithrane n l Aures).

-ساهمت تلك المجموعات في المحافظة على هوية المشتركين ودعمتها.

-لم تؤثر المضامين التي تنشرها المجموعات الأمازيغية الشاوية على حياتهم الواقعية.

- دراسة رادية شيخي ونور الدين دحمان بعنوان " **استخدام الشباب الجزائري للحرف اللاتيني في كتابة العربية عبر مواقع التواصل الاجتماعي دراسة إثنوغرافية**" [1] لهدف من هذه الدراسة هو التعرف على أشكال تواصل الشباب الجزائري عبرمواقع التواصل الاجتماعي، ومعرفة تجلياته المختلفة والطريقة التي يعبر بها عن نفسه، حيث يركز بشكل أساسي على كيفية التواصل، والحروف المعتمدة في كتابة الرسائل عبر مواقع التواصل الاجتماعي، كما تهدف إلى معرفة الحرف الأكثر استخداما في مواقع التواصل الاجتماعي من قبل الشباب، وإبراز

[1] رادية شيخي ونور الدين دحمان . " استخدام الشباب الجزائري للحرف اللاتيني في كتابة العربية عبر مواقع التواصل الاجتماعي دراسة إثنوغرافية"، مجلة المعيار، مجلد 25، العدد 54، 2021.

اللغات المتداولة من قبله، والكشف عن مدى انتشار استخدام الأحرف اللاتينية في التواصل بين المستخدمين الجزائريين عموما والشباب خصوصا.

للدراسة هذا الموضوع اعتمد الباحث على المنهج الإثنوغرافي في جانبيه الوصفي والتفسيري من خلال دراسة طبيعة اللسان المستخدم من قبل شباب الجزائري في مواقع التواصل الاجتماعي محل الدراسة، استخدم الباحث الملاحظة بالمشاركة الالكترونية من خلال ملاحظة سلوك الجماعة الاجتماعية الافتراضية المدروسة مهتما بالوصف التفصيلي والدقيق لثقافة الجماعة الافتراضية في تفاصيلها الصغرى من خلال الدخول إلى مواقع التواصل الاجتماعي الوالانضمام إليها والمكوث فيها لفترة زمنية معتبرة والمشاركة بالنشر والتعليق من خلال استخدام حسابات مختلفة والانضمام إلى مجموعات مختلفة الاهتمامات وذلك بهدف الوقوف على ملامح الظاهرة المدروسة سواء على مستوى المضمون المقدم في صفحات مواقع التواصل الاجتماعي أو على مستوى كيفية كتابة المنشورات والتعليقات في هذه المواقع (الفيسبوك، وتويتر واليوتيوب) بهدف الكشف عن الحرف الغالب على كتابة منشورات وتعليقات المستخدمين الشباب والدردشة فيما بينهم كخطوة أولى لفهم الظاهرة والإحاطة بها ورسم حدود انتشارها.

كان الباحث يشارك في النشر والتعليق والدردشة مع مستخدمي هذه المواقع من الشباب الجزائري وذلك بالمشاركة في العديد من المجموعات الأكثر متابعة وإعجابا في الفيس بوك والتوسيمات الأكثر تداولا في تويتر والتعليقات على الفيديوهات الأكثر مشاهدة في اليوتيوب من قبل الشباب الجزائري خلال الفترة الممتدة من 01جوان 2015 إلى غاية 01 جويلية 2019 ومن أجل التعمق في دراسة الظاهرة وفهم حيثياتها، استخدم الباحث أيضا المقابلة الإلكترونية نصف الموجهة. توصل الباحث إلى نتيجة رئيسية هي أن الشباب الجزائري المستخدم لمواقع التواصل الاجتماعي استحدث طريقة جديدة خاصة بهم في التواصل عبر هذه المواقع باستخدام معاني لعبارات ومفردات موجودة في لغته الأصلية أو بإيجاد كلمات وتعابير جديدة تعبر عن ما بداخله بالطريقة التي يريدها ، أو بتعريب بعض بعض الكلمات والعبارات في اللغة الأجنبية، وهذه الطريقة قد شكلت لسانا أو لغة جديدة خاصة بشباب اليوم لتمتد إلى مختلف الفئات العمرية في المجتمع الجزائري والسبب حسب الباحث راجع إلى التهرب من تطبيق القواعد اللغوية المعروفة في كل اللغات التي يستخدمها وهيمنة العامية عليه، بإضافة إلى السهولة في توصيل أفكار الشباب المستخدم لمواقع التواصل الاجتماعي.

-**دراسة نصيرة هواري** تحت عنوان " **السياق الاتصالي لجمهور الانترنت في الجزائر**" (2011)، الهدف من الدراسة هو دراسة السياق الاتصالي لجمهور الانترنت والشبكات الاجتماعية في الجزائر، انطلقت الباحثة من التساؤلات الآتية: هل تساهم بعض خصوصيات السياق الاتصالي لجمهور الانترنت في تبني بناءات ذهنية فردية

معينة؟ وهل سيطور الانترنت العلاقات الاجتماعية بين النوعين أم العكس سيساهم في تعميق الهوة بينهما؟ وما هي اتجاهات الأفراد لاستخدامهم الانترنت؟ وما هو مصير الرابط الاجتماعي في ظل هذه الوسيلة؟

وللإجابة على هذه التساؤلات وتحقيق الهدف من الدراسة اختارت الباحثة عينة قصدية ضمّت 9 أسر، اعتمدت على المنهج الإثنوغرافي مستخدمة الملاحظة بالمشاركة والمقابلة المعمقة.

أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة هي:

-يميل الأفراد عينة الدراسة أكثر إلى استخدام الانترنت بعدما سمح لهم تواجدها ضمن الفضاء المنزلي والتحكم فيه بصورة حسنة.

-إن إدراج الانترنت في الفضاء المنزلي ساعد على تقديم قراءة حول العلاقات بين النوعين في اتجاههم نحو الانترنت.

-إن الاتصال بين النوعين ما زال اتصالا محدودا فهو غالبا ما يكون للضرورة الملحة فقط، وأن استخدام الانترنت داخل الفضاء المنزلي من أجل الاتصال مع باقي أعضاء العائلة المتواجدين في الخارج.

– المقترب الإثنوغرافي ومستخدمي الوسائط الجديدة

تمهيد:

مع ظهور شبكة الأنترنت ظهر فضاء اتصالي جديد يتسم بالافتراضية ، والذي أصبح في العديد من المواقف موازيا للفضاء العادي الواقعي بغض النظر عن الفروق التي تميز كل منهما عن الآخر، فالعالم الافتراضي يسكنه أيضا أفرادا وجماعات كما تنشأ فيها جماعات اجتماعية على اختلاف أنواعها واختلاف اهتماماتها. على اعتبار أن أعضاء المجموعة الإفتراضية تجمعهم نفس الاهتمامات والانشغالات وتربط فيما بينهم علاقة ، ومنه فهم يكوّنون مجتمعا افتراضيا، وكذلك يمكننا اعتبار أعضاء المجموعة الواحدة مجتمعا افتراضيا له خصائصه التي تميزه عن باقي المجموعات الاخرى في هذا الفضاء.

فمنذ دخول تكنولوجيا الاتصال إلى صغائر الحياة اليومية للمجتمعات كثر الحديث عن الحكومات الالكترونية والمجتمعات الرقمية والهويات الافتراضية، فصارت دراسات الاتصال الجماهيري مرتبطة في الوقت الراهن وإلى حد بعيد بالوسائط الجديدة، على اعتبار أن مواقع التواصل الاجتماعي تستقطب مستخدمين من كل فئات المجتمع، ينشرون ويتلقون ويتصلون فيما بينهم على ضوء علاقات افتراضية تربطهم، سواءا كانت في الواقع وانتقلت إلى الفضاء الافتراضي أو نشأت في هذا الفضاء وانتقلت إلى الواقع أو تلك العلاقات التي تبقى افتراضية فقط، وعليه يترتب على الباحث عند دراسة الاتصال في المجتمعات الافتراضية — على اعتبارها جماهير مستخدمة

للوسائط الجديدة – تحديث أساليبه وأدواته ومناهجه البحثية، وإذا حاولنا البحث عن العلاقة بين التكنولوجيا والمستخدمين يجب علينا فهم هذه العلاقة، وهذا ما تطرق إليه الباحث Patrick Fleche الذي يرى بأن هذه العلاقة لابدّ من اخضاعها لمقاربة سوسيو تقنية، بحيث يدرج في نفس التحليل البعد التقني والبعد الاجتماعي، وهذا لفهم الظواهر المتوقعة ذات الصلة بالفعل التقني، انطلاقا من أن كل فعل تقني يندرج ضمن إطار سوسيو ثقافي وهو الإطار الذي يمكّننا من فهم الظواهر التي نعيشها ويمكّننا من فهم طريقة تنظيم أفعالنا.

ونجد أيضا أن بعض المقاربات المعتاد على استعمالها في هكذا دراسات، تبدو عاجزة عن التأقلم مع المستجدات التقنية للبيئة الاتصالية الجديدة خاصة مع اكتساب المجتمعات الافتراضية بعضا من خصائصها التي تميزها بداعي التأقلم مع تكنولوجيات الاعلام والاتصال. وعليه يمكن للباحث أن يدرس هذه المجتمعات الافتراضية دراسة إثنوغرافية للتوصل إلى نتائج دقيقة للظواهر الانسانية والاجتماعية والثقافية في هذا الفضاء الذي يتصل بشكل أو بآخر بالواقع المعاش. فنتيجة استخدام لتكنولوجيا الاتصال والإعلام ظهرت عدة مصطلحات تتماشى وطبيعة تكنولوجيا الاتصال الحديثة، أهم هذه المصطلحات: الوسائط الجديدة والمستخدم، إضافة إلى المجتمع الإفتراضي والتي تعد حقلا للدراسات الإثنوغرافية، سنشرح كل منها بالتفصيل فيما يلي:

4– ماهية وسائط الاتصال الجديدة

يمثل اكتشاف الوسائط الجديدة ثورة هائلة في عالم الكمبيوتر والاتصال، إذ تجتمع فيها كل قدرات وامكانات الاختراعات السابقة، وقد تطلّب هذا الانجاز تظافر جهود أعداد كبيرة من العلماء والتكنولوجيين والباحثين ورجال الصناعة والحكومات، وروعي في تحقيق هذا الانجاز الاسترشاد بأربعة أبعاد متفاعلة بالرغم من تمايزها على حد تعبير " جاري لاينر" وزملاؤه تتمثل فيما يلي:

–البعد التكنولوجي: المتمثل في ثورة تكنولوجيا المعلومات والاتصال، والتقدم الكبير الذي أحرزه البحث العلمي في هذه المجالات الواسعة المتعددة.

–البعد التنظيمي والإداري: المتعلق بأسلوب إدارة الانترنت ووضع السياسة العامة الموجهة لأنشطتها وعملياتها وخدماتها المختلفة.

–البعد الاجتماعي: الخاص بتقوية وتوطيد العلاقات بين مختلف الأطراف، التي تستخدم الوسائل التكنولوجية الحديثة وبخاصة في مجال التراسل، وكذلك تحقيق التعاون بين الفئات العديدة التي تعمل في مجال تكنولوجيا الاتصال.

–البعد التجاري: الذي يستهدف تسويق نتائج البحث والمعلومات والبرمجيات، بحيث أصبحت الانترنت الآن الأداة الرئيسية والأكثر انتشارا في مجال نقل المعلومات على مستوى العالم.

وإن الانتشار الواسع والمتسارع في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في وقتنا الحاضر، أدى إلى زيادة التفاف الجماهير حولها والاستفادة مما تقدمه من خدمات اتصالية وإعلامية في شتى الميادين، ومما لاشك فيه أن الوسائط

التكنولوجية الحديثة أصبحت تقدم الخدمات الإعلامية حول الوقائع والأحداث التي تتم في بقاع كثيرة من العالم من خلال كتابة التقارير الإخبارية والتعليقات عليها في إطار الخدمة الإعلامية المتكاملة.

4-خصائص وسمات الوسائط الجديدة:

سنتطرق إلى مصطلح " الوسائط" وأصل تسميتها حسب المدرستين الأنجلوساكسونية والفرنكوفونية، ففي اللغة الانجليزية أصل المصطلح هو كلمة " Media التي تعني" وسيط" وجمعها هي كلمة « Medium » التي تعني" الوسائط"، بينما في اللغة الفرنسية فقد تم استعارة هذه الكلمة واستخدامها لتصبح كلمةMedia مفردة وجمعها كلمة Medias.

فالوسائط الجديدة هي كل الوسائل التي تعتمد على تكنولوجيا المعلومات والاتصال الجديدة بغرض التواصل بين الأفراد وإعلامهم بمختلف الأخبار والمعلومات مثل شبكة الانترنت بمختلف خدماتها (البريد الإلكتروني، ومواقع التواصل الاجتماعي والهواتف الذكية...الخ، ومن أهم خصائص الوسائط الجديدة وسماتها نذكر ما يلي:

-منحت لمجتمعات ما بعد الصناعة اسم " مجتمع المعلومات".

-عدم وجود مالك مطلق لها.

-ديموقراطية الوصول إلى المعلومات تحت شعار " المعلومات في كل مكان وكل وقت ولكل الناس."

-عن طريق هذه الوسائل يمكن أن يعبر الفرد بحرية عن رأيه وأن يمتلك منبره الخاص ويتبادل الآراء.

-غزارة المعلومات: فبإمكان المستخدم الاطلاع على عشرات المصادر الإعلامية في جميع أنحاء العالم وبتكلفة قليلة، كما بإمكانه الانتقاء والمقارنة من خلال الاطلاع السريع على المصادر المختلفة.

-الغاء الحواجز الجغرافية والحدود السياسية.

-التفاعلية وتترتب عن هذه الخاصية أنه لم يعد يكفي أن نصف الجمهور المستخدم بأنه نشط بناء على اختياراته بين وسائل الإعلام المتعددة، أوعنيد بناء على رفضه أو قبوله للمحتوى أو القائم بالاتصال، بل أصبح مشاركا ومتفاعلا في العملية الاتصالية.

-الفورية، حيث ألغت هذه الوسائط الحواجز الزمنية، كما ألغت الحواجز المكانية، إذ أن الاتصال يتم بشكل فوري وبغض النظر عن مكان المرسل أو المستقبل، كما يمكن الحصول على الأخبار والمعلومات وهي لا تزال ساخنة من مصادرها المباشرة.

وغيرها من الخصائص التي قرّبت المستخدم من مصدر المعلومة وأتاحت له الفرصة بالمشاركة في التفاعل مع الخبر وإبداء آرائه حول كل ما ينشر عبر هذه الوسائط، وهي ما تولّد عنها عدة مصطلحات كمصطلح " الإعلام الجديد".

ب/ أنواع الوسائط الجديدة

تنقسم الوسائط الجديدة إلى عدة أقسام نذكر أهمها:

« E-Media »:الوسائط الإلكترونية تعتبر كل وسائل الاتصال الإلكترونية التي تستعمل الإلكترون في تنظيمها ومعالجتها وتخزينها وبث المعلومات بالنص والصوت والصورة مثل: الهاتف النقال، البريد الإلكتروني، الصحيفة الإلكترونية، المحاضرات عن بعد...الخ، وهذا المصطلح من خلال مفهومه قد يكون واسعا وشاملا ليضم مجموعة من الأجهزة والخدمات المرتبطة بها، ونظرا لتطور هذه الأجهزة وتطور خدماتها، بل وتداخلها فيما بينها يمكن التوصل إلى تصنيفات جديدة رغم صعوبة الأمر، فبعض الأجهزة اللوحية أصبحت تعمل ما يعمله الحاسوب، وحتى الخدمات كالبريد الإلكتروني لم يعد مقتصرا على إرسال الرسائل الإلكترونية اللاتزامنية، بل اندمجت معه خدمات الدردشة فأصبح من الممكن استعمال البريد الإلكتروني للتواصل الآني بين الأشخاص في نفس الوقت.

« Online Media » :تمثل الوسائط المتواجدة على الخط والتي يقصد بها المؤسسات التي تنشئ المواقع الإلكترونية في شبكة الانترنت لكي تصبح متاحة على الخط دائما من خلال عرض معلوماتها وخدماتها...الخ، وإنشاء المؤسسات لمواقع إلكترونية هو دليل على معرفتها بأهمية شبكة الانترنت في وقتنا الحالي وبدورها في منح المؤسسات امتدادا افتراضيا يعزز من حفاظها على ديمومة نشاطها وتقديم منتجاتها.

تشير إلى صحافة المواطن التي انتشرت في شبكة « Citizen Media » :

الانترنت بسبب توفيرها لتقنيات تخزين الملفات السمعية البصرية المسجلة والمصورة ونشرها من قبل جميع المستخدمين، فأصبح ذلك مماثلا لعمل الصحفي الذي يقوم بتغطية الأحداث، فقد أصبح المواطن يلعب دورا فعالا في عملية جمع وتصنيف وتحليل وصياغة المعلومات والأخبار، بحيث يكون الغرض عادة من المشاركة الإعلامية لمستخدمي شبكة الانترنت توفير تلك المعلومات المستقلة التي تجسد إلى حد كبير مبدأ الديموقراطية فيما يتعلق ببحث القضايا التي تحتاج إلى توفر معلومات ذات صلة، ويمكن الاعتماد عليها. وهذا المصطلح لا يرتبط بأي صلة مع مهنة الصحافة، تلك التي يقوم بها الصحافيون المحترفون، فصحافة المواطن هي جزء محدد من مفهوم إعلام المواطن مثله في ذلك مثل مصطلح المحتوى الذي يبتكره المواطن.

« Web Sites » :هي جميع المواقع الإلكترونية بغض النظر عن وظيفتها، حيث يعتبر كل موقع إلكتروني مجموعة من ملفات الويب الإلكترونية المرتبطة فيما بينها والمتضمنة لملف افتتاحي يسمى " الصفحة الرسمية" والتي يمكن الولوج من خلالها إلى بقية الوثائق المتضمنة في الموقع، ويتم الوصول إلى الموقع عبر كتابة اسمه في المتصفح، هذه المواقع تتعدد حسب نوع التقسيم الذي يحدد أنواعها، فمنها المواقع الساكنة والمواقع الديناميكية، ومنها مواقع الويب 1.0 ، ومواقع الويب 2.0 ومواقع الويب 3.0 ، ومنها أيضا المصنفة حسب التصنيف الشائع إلى مواقع إخبارية ومواقع ترفيهية ومواقع تعليمية ...الخ

« Social Web » : تعني الشبكات الاجتماعية في الانترنت أو ما يعرف بشبكات

التواصل الاجتماعي، وهي عبارة عن مواقع إلكترونية تؤسسها وتبرمجها شركات كبرى لجميع المستخدمين والأصدقاء لمشاركة الأنشطة والاهتمامات، وللبحث عن تكوين صداقات والبحث عن اهتمامات وأنشطة لدى أشخاص آخرين، حيث تقدم مجموعة من الخدمات للمستخدمين مثل المحادثة الفورية والرسائل الخاصة والبريد

الإلكتروني والفيديو والتدوين ومشاركة الملفات وغيرها من الخدمات، ومن الواضح أن تلك الشبكات الاجتماعية قد أحدثت تغيرا كبيرا في كيفية الاتصال والمشاركة بين الأشخاص والمجتمعات وتبادل المعلومات، أهمها الفايسبوك، تويتر وغيرها من المواقع.

« Wikis »: يقصد بها مواقع الخدمات السريعة، وهي مواقع إلكترونية تتواجد على الانترنت تسمح لزوارها بتعديل محتواها وإضافة محتوى جديد بدون أي قيود، وهي تعني " السرعة" واستخدمت هذه الكلمة كوصف لهذا النوع من المواقع للدلالة على السرعة والسهولة في تعديل محتويات الموقع، وإضافة المحتوى على موقع " ويكي" هو عمل تشاركي وفي حالات كثيرة يسمح لأي شخص بتعديل محتواه من دون التسجيل أو كلمة المرور ويوجد نوعان أساسيان من هذه المواقع مثل:

wikipedia: يعرض المعلومات التي تفيد المستخدم في شتى المجالات.

Wikileaks : يعرض المعلومات المسرّبة عن حقائق أو وثائق سرية بغية كشفها.

وكلنا نعلم أن التكنولوجيا بتقنياتها المختلفة أصبحت في تطور كبير وسريع جدا، ولذلك يتوقع خبراء التكنولوجيا أن تشهد السنوات القادمة تطورا أكبر من خلال ابتكار أدوات واختراعات تكنولوجية جديدة تزيد من سبل الترفيه والاستفادة للبشر في جميع المجالات.

2- المستخدم (جمهور الوسائط الجديدة)

نستكمل الحديث عن مفهوم الجمهور والاستعمالات الراهنة له من خلال التعريف بمختلف أشكال وأنماط وصفات ومميزات جمهور وسائط الاتصال الجديدة (المستخدمين) التي أوجدتها التطبيقات الواسعة لتكنولوجيات الإعلام والاتصال الحديثة، ولا زالت تطورها بسرعة مذهلة موازاة بالتطور والتحسين المستمر للمنتجات التكنولوجية واستعمالاتها المتعددة.

وأول وأهم محطة في طريق الانتقال من المجتمعات الصناعية الحديثة إلى المجتمعات الإلكترونية أو مجتمعات ما بعد الحداثة، تكمن على صعيد الاتصال الجماهيري في تأثيرات وآثار البث التلفزيوني المباشر عبر السواتل أو الأقمار الصناعية (DBS : Direct Broad casting vis Satellite) منذ نهاية السبعينات، ثم التوسع المتسارع في استعمال شبكة المعلومات Internet منذ التسعينات بفضل تطوير تقنيات الإبحار الإفتراضي وفي مقدمتها إنشاء الشبكة العالمية العنكبوتية (WWW : World Wide Web). وتسمى هذه المرحلة " ثورة تكنولوجيات الاتصال الحديثة" بفضل الانفجار الإلكتروني، وما زالت مستمرة ولم تتضح حدود تأثيراتها بعد، حيث أن آثارها لم تظهر بوضوح كاف على مفهوم الجمهور.

غير أن التغيرات التي تشمل جميع منظومة المفاهيم في شتى المجالات تطال أيضا وبصفة خاصة الدراسات الإعلامية، وبالنتيجة أشكال وسمات جمهور وسائل الإعلام، فقد ظهرت عدة مصطلحات تخص جمهور وسائل الإعلام نذكر أهمها فيما يلي:

-الجمهور الشامل: (Global Audience) يعني من جهة جمهور وسائل الإعلام التقليدية والحديثة بدون تحديد الوسيلة أو الشريحة أو الفئة والخصائص النوعية للجمهور، ويعني من جهة أخرى جمهور الرسائل الإعلامية لوسائل الاتصال الشاملة العابرة للأمم والثقافات.

- جمهور الواب: (Web Audience) يشمل مجموع مستخدمي الشبكة العالمية العنكبوتية في اتصالاتهم دون تحديد طبيعة الخدمة التي تقدمها هذه الشبكة والتي يستفيد منها المستخدم مثل البريد الإلكتروني، الحوار والدردشة، أو فقط الإبحار الإفتراضي عبر مختلف المواقع، ويمكن تسميته بالجمهور المبحر.

- مستخدمو الانترنت: (Internautes) ويعني كل الأشخاص الذين يتعاملون مع الانترنت بصرف النظر عن موقعهم ومكانتهم في العملية الاتصالية الرقمية، متلقي أو مرسل، وهو ما يشير إلى اختفاء الحدود بين المرسل والمتلقي وتبادل الأدوار بفضل الاتصال الرقمي Digital communication.

- جمهور على الخط: (Online- Audience) وهو الجمهور الذي تتوفر فيه جميع مواصفات الشكلين السابقين مع إمكانية التفاعل المباشر، القادر على تبادل الأدوار بفضل الشبكات الاجتماعية أو غرف الدردشة، أي الجمهور الفعّال المتفاعل فوريا في اللحظة الزمنية الراهنة، أي أن زمن الإرسال هو نفسه زمن الاستقبال.

- جمهور خارج الخط: (Offline- Audience) وهو الجمهور الذي لا يتفاعل مع الرسالة في نفس لحظة الإرسال بسبب وجوده خارج الشبكة، بمعنى غير مرتبط بالشبكة في تلك اللحظة، ولكنه يتفاعل لاحقا، أي يستجيب للرسالة الفورية أو المسجلة على بريده الإلكتروني أو صفحة على الشبكة الاجتماعية في زمن لاحق لزمن الإرسال.

- الجمهور المشبك: (Networked Audience) وهو جمهور وسائل الإعلام المشبكة أو على الخط.

- الجمهور الإلكتروني: (E- Audience) وينسب إلى وسائل الإعلام الإلكترونية سواء التقليدية المشبكة أو الإلكترونية وفقط.

- الجمهور ذو القدرة على التواجد الكلي في كل مكان وزمان: ويتضمن كل أشكال جمهور الوسائط الجديدة (المستخدمين) يمكنه أن يتعرض ويتفاعل، في كل مكان يكون فيه مع الرسالة الإعلامية التي ترسل من أي مكان.

هذه أهم المصطلحات الجديدة التي أعطت مفهوم الجمهور أبعادا جديدة تتجاوز الحدود الجغرافية والسياسية والثقافية للبلدان والشعوب والأمم والتي أضفت على مفهوم جمهور وسائل الإعلام صفة التواجد الكلي الذي لا يحده مكان جغرافي ، فهو يتواجد في كل مكان وفي نفس الزمن بصورته وصوته وكلماته، فالمستخدم هنا هو المتلقي والمرسل في نفس الوقت.

أ/ الخصائص والسمات العامة لمستخدمي وسائط الاتصال الجديدة

تكتسب الوسائط الجديدة أهمية خاصة بين وسائل الإعلام الأخرى لأنها أجهزة تخاطب العين والأذن معا بالصوت والصورة، ومع تزايد استخدام هذه الوسائط في حياة الأفراد استلزم إجراء دراسات عديدة حول أثر وطبيعة وكيفية استخدامها، ومهما يكن، فإن نجاح أي عملية اتصالية يرتبط أساسا بمدى معرفتنا لنوعية الجمهور

الذي يستقبل الرسالة، ولهذا فإن معرفة الخصائص الشخصية للجمهور تكون أساسية لتوجيه الرسائل الملائمة إليه من جهة، ولمعرفة أثر الوسيلة الاتصالية من جهة أخرى، ولعل من أبرز خصائص المستخدمين (جمهور الوسائط الجديدة) ما يلي:

– **المستخدمون هم مجموعة من الأشخاص الذين تساهم الوسائط الإلكترونية الجديدة بأي شكل من الأشكال في تقديم أو تسهيل تعرضهم للرسائل الإعلامية عبر مختلف هذه الوسائط**، بما فيها وسائل الإعلام التقليدية التي تستعمل شبكة الأنترنت للتوزيع الإلكتروني، أو يتدخل الإلكترون أيضا في مساعدتهم على القيام بسلوك تجاري أو انتخابي أو ثقافي أو اجتماعي.

– **هم مجموعة الأشخاص الذين يشتركون في استعمال مختلف المواقع الإلكترونية** للحصول على المعلومات التي يحتاجونها في حياتهم اليومية، وهذا ما لاحظناه سالفا في جمهور الواب.

– **امتهان مهنة الصحافة**، وهي صفة أكسبتها الوسائط الجديدة للمواطن المرتبط بالشبكة العنكبوتية، والذي يقوم بمختلف نشاطاته اليومية وهو قابع في مكانه، مثل العمل المنزلي، والتسوق والإنتخاب وغيرها من السلوكيات اليومية.

– **قدرة المستخدم على التواجد الكلي في الزمان والمكان**، وهي الصفة الأكثر حداثة وإثارة للفضول، تعبر عن حالة بدأت خيالية ولكنها تتجسد كواقع موضوعي يوميا، فالقدرة على التواجد في كل مكان في نفس الزمن، أصبحت ممكنة بفضل عالم الحواسيب التي تحيط بالإنسان وتساعده على فعل ما يريد في الوقت الذي يريد والمكان الذي يريد وبالكيفية التي يريد، لا حدود لإرادته إلا الحدود التي تفرضها الإمكانات التطبيقية للتكنولوجيات. وبالتالي يمكن للمستخدمين التواجد في كل مكان في نفس الزمن، إذ أصبح يطلق عليه " الجمهور عن بعد" .

– **التحرر**: مستخدم الوسائط الجديدة متحرر من كل القيود الزمكانية والجسدية، والقيود السوسيوثقافية التي يفرضها عليه المجتمع، فهذه الوسائط جعلت العالم عند أطراف أصابع المستخدم، فهي تمكّنه من تشكيل تنظيمات اجتماعية يتواصلون من خلالها مع ضمان السرية وإخفاء الهوية، وبذلك يشكلون ثقافة متميزة عن ثقافتهم الأصلية متخطية تقاليد المجتمع ويكون المستخدمين متحررين من كل التزاماتهم، وبهذا الخصوص يرى Wellman Barry بأن الأفراد بدل أن يجتمعوا في المنتزهات والمقاهي وأركان الشوارع مع الجيران والأصدقاء، يدردشون الآن مع بعضهم البعض بالبريد الإلكتروني، ويجتمعون في تجمعات في بيوتهم الخاصة الإفتراضية، فالأنترنت حررت نزعة وميول لديموقراطية قوية، وأصبح المستخدم (الجمهور) يعرف ما يسمى بالديموقراطية الإلكترونية.

– **القدرة على الانتقاء**: يملك مستخدم الوسائط الجديدة القدرة على الانتقاء، أي الإختيار العمدي على أساس مقاييس موجودة في الحياة الاجتماعية، إذ يقوم بالاحتفاظ ببعض المعلومات ورفض البعض الآخر، حيث تشمل عمليات تسجيل المعلومات على قدر كبير من انتقاء المعلومات الهامة. بمعنى أن المستخدم يقوم بتصفية وفرز

البرامج والمضامين التي تشبع حاجات ودوافع معينة لديه، ويرفض ما لا يشبع رغباته وحاجاته، وفي هذا الشأن يقول الباحث الأمريكي " هربرت بلومر H. Blumer": " أن السلوك الذي يميز جمهور وسائل الإعلام بصفة عامة هو أن أفراده يختارون أو ينتقون مضمونا معينا سواء أكان أفلاما أو برامجا، ويمكن في هذه الحالة تفسير ما ينتقيه الجمهور مستخدمين في ذلك متغيرات مثل: العمر، الجنس وسنوات التعليم والوضع الإقتصادي والاجتماعي".

وبصفة عامة فإن المستخدم بفضل القدرة الانتقائية والإختيارية يعمل في أغلب الأحوال على حماية اتجاهاته وآرائه السابقة، وأنها تجعله يتعرض في أغلب الأحوال للمضامين الإعلامية الإلكترونية بما يتفق مع اتجاهاته ويتجنب ما يخالفها، وهذا ما تؤكده النظرية الاتصالية الحديثة، إذ أن المستخدم يتعرض للرسائل الإعلامية وهو مجهز بمكانيزمات دفاع نفسية واجتماعية وحضارية تتحكم إلى حد بعيد في اختياره للتعرض واستخدامه لمحتوى معين دون آخر، وكذلك انتقائه للمعلومات وإدراكها يتم حسبما يعزز أو يتوافق مع قيمه ومعتقداته.

-مستخدمو الوسائط الجديدة بصفة عامة فاعلون، فهم لا يتقبلون وببساطة المعاني النصية، بل يتعاملون معها من خلال قدراتهم ومهاراتهم الثقافية المكتسبة سابقا، فالنصوص لا تجسد نفس المعنى بل تحمل معاني متعددة ولكل مستخدم قراءته الخاصة به حسب ما يمتلك من معلومات سابقة أو حسب خبراته وتجاربه السابقة.

بالإضافة إلى هذه الخصائص، يشترك مستخدمو الوسائط الجديدة مع جمهور وسائل الإعلام التقليدية (صحافة، إذاعة وتلفزيون) في خصائص أخرى من أبرزها الحجم الواسع، نظرا لامتداد الأنترنت عبر الفضاء العالمي الواسع، والتشتت، وعدم التجانس، والمجهولية، (أي أن أفراد الجمهور والمستخدمين غير معروفين بذواتهم ولا يعرفون بعضهم البعض)، إضافة إلى غياب التنظيم الإجتماعي ووجود اجتماعي غير مستقر في الزمان والمكان.

ب/ المقاربات النظرية والمنهجية لدراسة مستخدمي الوسائط الجديدة

لقد أثارت مسألة التلقي فضول العديد من الباحثين الذين اهتموا، كل حسب الأنموذج الذي ينطلق منه وحسب طبيعة أهداف البحث، بمختلف جوانب عملية التلقي سواء تعلق الأمر بالمتلقي (القارئ، المشاهد) أو بالنص أو بطبيعة العلاقة بينهما أو بالتأويل (فك الرموز) حسب ما تطرقنا إليه سابقا في نماذج التلقي لجمهور وسائل الإعلام التقليدية، غير أن الأعمال التي قدمها كل من: (David Morley, Staiger Janet, Don Slater, Daniel Miller, Baker Martin) وغيرهم تبقى أكثر دلالة في جانبها النظري والإمبريقي السريع الذي يجعلها أكثر ديناميكية، وبالتالي تأطير التغييرات التي تدخلها يوميا التكنولوجيات الجديدة على الفضاء الإعلامي والإتصالي، وبالنتيجة على الأبحاث المتعلقة بالجمهور.

إنّ المفاهيم الجديدة المتعلقة بالمتلقي وسلوكياته وأبحاثه، كما هو الشأن بالنسبة لمختلف المفاهيم والدراسات الإعلامية عامة تستمد مفهومها أساسا من الأدبيات التي أوجدتها تيارات ما بعد الحداثة ابتداء من القرن العشرين، وأيضا من الأجواء التي خلقتها تكنولوجيات الإعلام والاتصال المستجدة في المحيط الإتصالي المتحرك.

وقد تتجلى أفكار ما بعد الحداثة المطروحة في جوانب التلقي المختلفة وفي ميادين نشر المستحدثات من خلال دراسة إبستمولوجية للباحثة " جاب نيكولايزن"Nicolaisen 2005) (والنقاشات التي كانت قد جرت من قبل حول العناصر الأكثر دلالة في المفاهيم الأكثر تداولا في أبحاث الجمهور خاصة خلال (1995- 2005) على يد كوكبة من الباحثين منهم : مورلي، كاران، فيسك وسلايتر وغيرهم من الذين لازالوا يواكبون عن قرب تطورات دراسات الجمهور تزامنا مع تطور تكنولوجيات الإعلام والإتصال.

وإن كانت هذه الإرهاصات لا تشكل بعد أنموذجا متمايزا، فإنها مؤشرات قوية على ظهور تيار جديد في الدراسات الإعلامية، ولاسيما دراسات الجمهور في عالم ذي حركية سريعة، يمكن أن تستقر قريبا في أنموذج يتخذ وصف ما بعد الحداثة.

سيوفر نظام الاتصال الرقمي بعد تعميمه، أي جهرته في عمليات الاتصالات المحلية والإقليمية والدولية وخاصة تلفزيونات الأنترنت وتوسيع شبكات الخوادم المضيفة Servers ذات سعة تخزين هائلة، سيوفر لجمهور المتلقين (المستخدمين) خيارات عديدة منها القدرة على التجوال بين الزوايا المختلفة والأزمنة المختلفة لتلقي كافة التفصيلات الدقيقة عن الحدث أو العمل الدرامي خاصة لجمهور مشاهدي التلفزيون عبر النت. مثل التوقف عند لقطة مختارة في لحظة معينة، والرجوع إلى الخلف أو التقدم إلى الأمام وغيرها من العمليات الدالة على سيادة المتلقي (المستخدم) في اتخاذ القرار المناسب لظروفه الخاصة. وهكذا ساهمت هذه التكنولوجيات في تنامي مفهوم جمهور المتلقين، ليصبح المتلقي نشطا يتخذ قراره بناء على معطيات سابقة لتلقي الرسالة والمصدر والمحتوى.

ومع ذلك فإن مناهج الأبحاث في هذه البيئات التقنية-الاجتماعية ومختلف أنماط التفاعلات بين مختلف العناصر المكونة لها، بدأت في أقل من عشرية من الزمن تعطي بعض النتائج التي لم تكن متوقعة قبل حلول هذا العالم ما بعد الحديث.

فبعد الحرب العالمية الثانية وما شهدته أوروبا من موجات عدم الاستقرار، اتجهت أنظار البحث في علوم الإعلام والاتصال نحو القارة الأمريكية، فأنجزت العديد من الدراسات والبحوث الاتصالية التي تناولت الاتصال الجماهيري، العمليات الاتصالية ، الرسائل أو المضامين الإعلامية ، ووسائل الإعلام وتأثير الرسالة الإعلامية على سلوك المتلقي وغيرها والتي تشكل اليوم التراث النظري لهذا العلم، وقد كانت كندا واحدة من الدول التي أثبت باحثوها براعة في التقصي الميداني والإنتاج المعرفي الغزير، وقدموا نظريات هي بمثابة مرجعيات لكثير من الدراسات اليوم على غرار " هارولد إينيس" و" مارشال ماكلوهان". و من أهم المقاربات النظرية التي اهتمت بدراسة تأثيرات الإعلام الالكتروني (الجديد) على المستخدمين:

- نظرية الحتمية التكنولوجية (إينيس، ماكلوهان)
- نظرية المجتمع الشبكي (كاستلز، بارني)
- نظرية الاستخدامات والاشباعات
- نظرية انتشار المبتكرات

-نظرية وضع الأجندة

أولا:نظرية الحتمية التكنولوجية:

لقد تبلورت نتائج بحوث " هارولد إينيس" من خلال دراسته " الامبراطورية والاتصالات" سنة 1950 و" انحراف الاتصال" في 1951 وقد جاءت فرضيات "إينيس" وبحوثه بمثابة المبشر بميلاد نظرية جديدة تهتم بأثر تكنولوجيا الاتصال على ثقافة المجتمعات، وقدراتها على إحداث التغييرات عليها والتي نسبت فيما بعد لتلميذه " مارشال ماكلوهان " " Herbert Marshall Mcluhan" بعدما طورها وأعطاها تسمية " الحتمية التكنولوجية" " Technological-Determinism" فيما بعد.

ارتبطت تقديمات "ماكلوهان" بما يمكن تسميته بأثر الاتصال الالكتروني على البنيات الذهنية والتصويرية التي تميز العلاقة بين الفرد وحواسه والوسيلة الإعلامية أو رسالتها، وقد قدم طرحا يغاير النظرة الكلاسيكية التي تجسدت في مقولة "لاسويل" من أن وسائل الاتصال من من؟ (القائم بالاتصال)، قال ماذا؟ (الرسالة)، لمن؟ (المتلقي) وبأي تأثير؟ (ما تحدثه الرسالة عند المتلقي). فنحن اليوم نعيش الآفاق التي لا حدود لها والتي افتتحت أمام الاتصال البشري النمو والتطور نتيجة تزاوج ظاهرتي المعلوماتية وثورة وسائل الاتصال، حتى أصبحت عملية الفصل بين دور المعلومات وتكنولوجيا الاتصال أمرا مستحيلا لأنهما وجهان لعملة واحدة، إذ يتظافران ليكونا مفهوما شاملا هو تكنولوجيا المعلومات.

وجدير بالذكر هنا أن أستاذ "ماكلوهان" ومرجعه العلمي " هارولد إينيس" لم يشدد مطلقا على حتمية وسائل الإعلام الجديدة أو حتمية التكنولوجيا، بقدر ما أكد على ضرورة فهم تأثيرات هذه الوسائل على الزمن والمكان، من منطلق البيئة الاقتصادية والاجتماعية عند استعمالها. وبشكل عام فإنه حسب " ماكلوهان" هناك طريقتان للنظر إلى وسائل الإعلام، أولاهما من حيث: أنها وسيلة لنشر المعلومات والترفيه والتعليم، والثانية أنها جزء من سلسلة التطور التكنولوجي، وإذا اعتبرنا أنها وسيلة لنشر المعلومات والترفيه والتعليم سينصب الاهتمام عند ذلك على مضمونها وطريقة استخدامها والهدف من هذا الاستخدام، أما إذا اعتبرناها جزءا من العملية التكنولوجية فعند ذلك يكون الاهتمام بتأثيرها بغض النظر عن مضمونها باعتبارها جزء من العملية التكنولوجية.

وفي العلاقة بين الوسائل الاعلامية الجديدة والتقليدية ، وضع " ماكلوهان" قانونا افتراضيا لما يحدث عند ولادة وسيلة اعلامية جديدة، فحدد أربع وظائف محتملة لهذه الوسيلة في مقابل الوسائل التقليدية ، أولها أنها تقوم بتمديد وسيلة أخرى قائمة بجعلها أكثر فائدة مما كانت عليه قبل ظهور الوسيلة الجديدة، أو رفع قيمتها، والثانية أن الوسيلة الجديدة تلغي وسيلة قائمة أو تقلل بشكل كبير من أهميتها، والثالثة أنها عند تفعيلها بأقصى طاقة تعمل على موازنة وسيلة قائمة، والرابعة أنها تعيد إحياء وسيلة تقليدية غابت أو تراجعت أهميتها بصورة كبيرة قبل ظهور الوسيلة الجديدة. وتعتبر هذه التصورات التي يحملها "ماكلوهان" اتجاه وسائل الإعلام وما تملكه من قدرات مقارنة بالمضامين التي تحملها المنطلقات الأساسية لنظريته المستندة على الوسيلة والتقنية.

استعمالات الإعلام الإلكتروني في ظل نظرية الحتمية التكنولوجية:

لقد أحدثت تكنولوجيا المعلومات نقلة مجتمعية حادة، هذه التكنولوجيا وليدة التلاقي الخصب للعديد من الروافد العلمية والتكنولوجية والتي يتسنم قمتها ثالوث تكنولوجيا الكمبيوتر ونظم الاتصالات وهندسة التحكم التلقائي، الأمر الذي تنبأ له " ماكلوهان" مبكرا عندما قدم مشروعه عن " **القرية العالمية**" التي تزول فيها كامل الحواجز الجغرافية والسياسية بفعل حرية انتقال المعلومة. ففي منتصف الستينات من القرن العشرين أعلن " ماكلوهان" عن ما أسماه بالقرية الكونية أو القرية العالمية من خلال كتاب نشره عام 1967 تحت عنوان " الوسيلة هي الرسالة" وصرح قائلا:" أننا نعيش في قرية عالمية وأن الوسائل الإلكترونية الحديثة ربطت كلا منا بالآخر، وبالتالي فإن المجتمع البشري لن يعيش في عزلة بعد الآن، وهذا يجبرنا على التفاعل الجماعي والمشاركة ، فقد تغلبت الوسائل الإلكترونية على قيود الوقت والمسافة". وهذا ما يقودنا للحديث عن تأثيرات الإعلام الجديد أو الإلكتروني الذي فرض بمختلف أشكاله ومظاهره واقعا اتصاليا جديدا، فباتت مواقع كالفايسبوك وتويتر واليوتيوب وغيرها مما يعرف بالشبكات الاجتماعية والتي أصبحت تعد مصدرا رئيسيا لاستقاء الأنباء ووسيلة من وسائل تبادل المعلومات بين الناس وخاصة آخر المستجدات، على الرغم من أن هذا ليس دورها الرئيسي الذي قامت من أجله بادئ الأمر.

حيث بدأ التهافت على هذه الشبكات الاجتماعية والانخراط فيها ظاهرا مما أدى إلى ارتفاع مستمر في استخدامها، مما أدى إلى تكوين دوائر اجتماعية غالبا ما تلجأ إليها أو تستعملها المؤسسات التجارية من خلال حملاتها التسويقية وتستفيد منها كقواعد بيانات عن اتجاهات الجمهور وآراء المستهلكين، ليشكلوا بذلك جمهورا من نوع خاص ومميز.

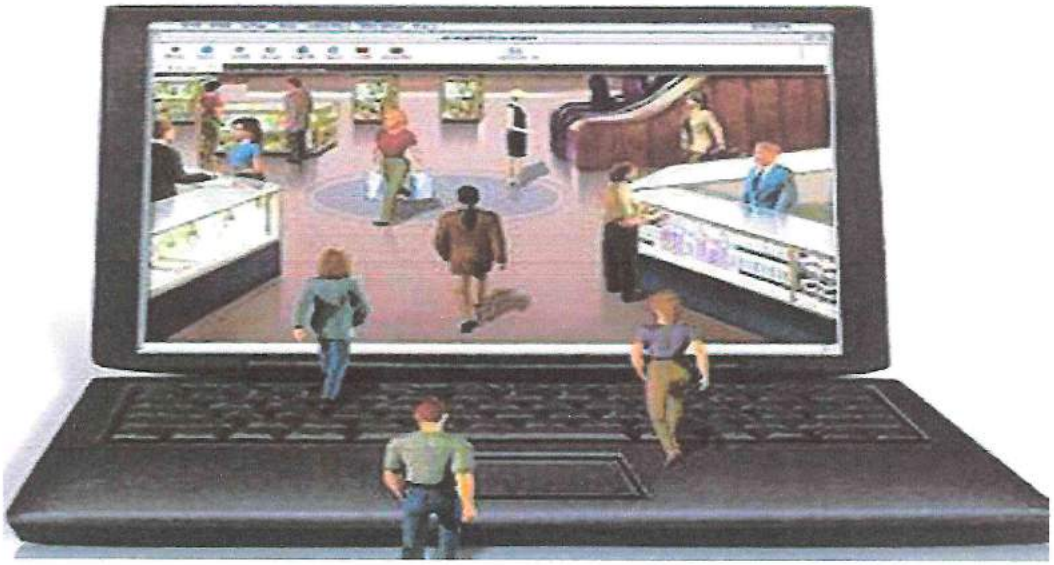

وقد لعبت وسائل الإعلام الجديدة التي فرضت نفسها على كل المجتمعات دورا فاعلا في إعادة تكوين الأنساق الاجتماعية من خلال إحداث التغيير على مستوى كل من العلاقات بين الأفراد وأدوارهم والمعايير الاجتماعية التي تحكمهم، فأصبحت هذه المجتمعات أمام تغير اجتماعي وتبدل في طبيعتها، وبدت مكونة من مستخدمين منفصلون عن الواقع المادي، منغمسون في العالم الافتراضي بعد أن استطاعت هذه الوسائل التكنولوجية (الميديا الجديدة) واخراجهم من أنفسهم من خلال خلق هوايات جديدة لهم بحيث أصبح يطلق عليهم " المجتمع الافتراضي" " The Virtual Communitie" فكل من تكنولوجيا الاتصال والمعلومات وما تمخّض عنهما من وسائل إعلام إلكتروني تعتبر عوامل للتغيّر الاجتماعي Social Change. فوسائل الإعلام الالكتروني (الإعلام الجديد) أصبحت أكثر من مجرد أداة لزيادة حجم الجمهور من القراء والمستمعين والمشاهدين، فحتى وإن لم يتفق الكثيرون كليا مع ما جاء به " ماكلوهان" من أن للتقنية سلطتها بقوله " الوسيلة هي الرسلة" فإنه على الأقل دفعنا للبحث وراء مقدرة هذه الوسائل على إحداث التغيير وعن مستويات هذا التغيير ودرجته.
يعتقد ماكلوهان أن مد جهازنا العصبي تكنولوجيا سوف يمكن الانسان من إدماج البشرية داخله، وأن الوسائل الالكترونية (الاعلامية) سوف تجعلنا نعود إلى الترابط مرة أخرى.

الانتقادات التي وجهت للنظرية:

انتقد ريتشارد بلاك R.Blake مقولة ماكلوهان عن "القرية العالمية" فهو يرى بأن التطور التكنولوجي بدلا من أن يحول العالم إلى قرية حوله إلى شظايا، فكل فرد يعيش في عزلة ولا يعرف شيئا عن المحيطين به من الجيران، وبدلا من حدوث الاندماج الثقافي بين الشعوب، انعزل الأفراد في قطاعات متفرقة وأصبح كل فرد يستخدم وسيلته الخاصة، ويطور اللغة التي تناسبه، وبالتالي الفروق والتمايز بين الأفراد بدلا من ترسيخ التماسك والاندماج.

ثانيا: نظرية المجتمع الشبكي: Van Dick, Manuel Castells, David Barney

برز مصطلح مجتمع الشبكة Network Society على يد الهولندي "جان فان ديك" " Jan van Dick " في كتابه "مجتمع الشبكة" عام 1991 و كذلك الباحث الإسباني "مانويل كاستليس" " Manuel Castells" في الجزء الأول من ثلاثيته "عصر المعلومات" 1991.

يذهب مجتمع الشبكة إلى أبعد من مجتمع المعلومات الذي يتم الإعلان عنه غالبًا حيث يؤكد " كاستيلز" بأن التكنولوجيا ليست وحدها التي تحدد المجتمعات الحديثة ، ولكن أيضًا العوامل الثقافية والاقتصادية والسياسية التي تشكل مجتمع الشبكة إضافة إلى المؤثرات الأخرى مثل: الدين ، والتربية الثقافية ، والمنظمات السياسية ، والوضع الاجتماعي كلها تشكل مجتمع الشبكة. تتشكل المجتمعات من هذه العوامل بطرق عديدة بحيث يمكن لهذه

المؤثرات إما رفع أو عرقلة هذه المجتمعات. فبالنسبة لفان ديك Jan van Dick تشكل المعلومات جوهر المجتمع المعاصر ، في حين أن الشبكات تشكل الأشكال التنظيمية والهياكل لهذا المجتمع.

وعليه فإن مجتمع الشبكات هو بناء اجتماعي محدد، أي ذاك البناء الاجتماعي الذي يميز المجتمع مع بداية الألفية الثالثة، بناءٌ أقيم حول شبكات الاتصال الرقميَّة، لأن علاقات السُّلطة تغيرت بشكل حاسم مع السيَّاق التكنولوجي والتنظيمي الجديد الناتج عن ظهور شبكات الاتصال الرقميَّة العالميَّة باعتبارها النظام الأساسي لمعالجة الرموز في عصرنا.

ويعرف فان ديك " Jan van Dick" "مجتمع الشبكة" بأنه مجتمع مكون من الشبكات الإعلامية والاجتماعية التي تشكل هيئته الأساسية وبنيته الرئيسية على كافة المستويات (الشخصية والمؤسساتية والمجتمعية) ويقارن هذا النمط بمجتمع شامل من المجموعات والمنظمات والمجتمعات المنظمة. "فمجتمع الشبكة" في نظره يعد شكل من أشكال المجتمع الذي ينظم علاقاته بشكل متزايد في شبكات الإعلام ليحل محل أو يكمل الشبكات الاجتماعية للتواصل وجهًا لوجه، يتم دعم الاتصالات الشخصية والشبكات الاجتماعية من خلال التكنولوجيا الرقمية وهذا يعني أن الشبكات الاجتماعية ووسائل الإعلام تشكل الشكل الرئيسي للتنظيم وأهم الهياكل في المجتمع الحديث. أما "مانويل كاستليس" " Manuel Castells " فإنه يرى بأن الشبكات تشكل التحولات المجتمعية الجديدة في مجتمعاتنا. فقد خصص الفصول الثلاثة الأولى من كتابه (المجتمع الشبكي) لاستقصاء وضع السُّلطة في مجتمع الشبكات، وطبيعة الاتصال في العصر الرقمي لإبراز العلاقة بين شبكات العقل والسُّلطة وقد حدد معنى السُّلطة بالاعتماد على بعض المساهمات الكلاسيكيَّة في العلوم الاجتماعيَّة كصندوق أدوات لفهم الواقع الاجتماعي، فإذا كان المجتمع الصناعي قد ارتبط بالعصر الصناعي، فإن مجتمع الشبكات يرتبط بعصر المعلومات. وشرع في تحليل الاتصال وتحديداً الاتصال الجماهيري في زمن العولمة والرَّقمنة وما صاحبه من تحول في جوهر الشخص الذي تحول من متلقي إلى مرسل ليكشف عن الروابط بين النشاط الاقتصادي ووسائل الإعلام والسيَّاسة.

فإذا كانت السُّلطة تسير من خلال العمل على العقل البشري بوسائل توصيل الرسائل، فنحن في حاجة إلى فهم كيف يعالج العقل البشري هذه الرسائل، وكيف تترجم هذه المعالجة في المجال السيَّاسي، مركزاً تحليله على ما وصلت إليه مدرسة الذكاء العاطفي والأعمال الأخرى للاتصال السيَّاسي، والتي توفِّرُ جِسراً بين الهيكلة الاجتماعيَّة والمعالجة الفرديَّة لعلاقات السُّلطة، إلى جانب الاكتشافات الجديدة لعلم الأعضاء وعلم الإدراك المعرفي.

يستشهد بالتضليل الإعلامي الذي مارسته إدارة الرئيس بوش على الجمهور الأمريكي فيما يتعلق بحرب العراق لبيان العلاقات الخاصة بين الانفعال والإدراك المعرفي والسيَّاسة. هكذا إذن يتطلب فهم بناء علاقات السُّلطة خلال الاتصال في مجتمع الشبكات إدماج ثلاثة عناصر :

– المحددات الهيكليَّة للسُّلطة السيَّاسيَّة والاجتماعيَّة في مجتمع الشبكات في ظل العولمة.

– المحددات الهيكليَّة لعمليَّة الاتصال الجماهيري في ظل الظروف التكنولوجيَّة والثقافية في عصرنا.

– المعالجة المعرفيَّة للإشارات التي يحملها نظام الاتصال إلى العقل البشري لأنها ترتبط بالممارسة الاجتماعيَّة ذات الصلة السيَّاسيَّة.

ويرصد في الفصل الرابع كيف أنه في ظل مجتمعات الشبكات تكون السيَّاسة في الأساس سيَّاسة الإعلام، وعلى الأخص سيَّاسة الفضائح في زمن أزمة المشروعيَّة السيَّاسيَّة التي تتحدى معنى الديمقراطيَّة في معظم البلدان وفي الفصل الخامس سيكشف عن كيفية عمل الحركات الاجتماعيَّة وعوامل التغيير السيَّاسي من خلال إعادة برمجة شبكات الاتصال للتأثير وإيصال صوتها .فالإعلام السيَّاسي والحركات الاجتماعيَّة تستعمل كلا النمطين من الشبكات شبكات: وسائل الاعلام وشبكة الانترنيت من منطلق أن الحركات الاجتماعيَّة كلَّما انخرطت في وسائل الاتصال الجماهيري عبر شبكة الأنترنيت، كلَّما كانت حظوظها أوفر في تحقيق التغيير الاجتماعي.

وانتقل إلى إعادة برمجة شبكات الاتصال والحركات الاجتماعية والسياسة المتمردة والفضاء العمومي الجديد ليشدد على دور وسائل الاتصال الجديدة في ظهور هذا الفضاء الذي يتم فيه التحكم في الرأي العام وفي صناعة القرار السيَّاسي عن طريق الشبكات التي تنامت مع الشبكات الاجتماعيَّة والأنترنيت، رغم ما تحمله من خطورة على السيَّادة الوطنيَّة، لأنه مع مجتمع الشبكات ستنمحي الاعتبارات الأخلاقيَّة والدِّينيَّة واللُّغويَّة والتمايزات العصبيَّة والقبليَّة لصالح ثقافة جديدة قِوامُها الارتباط المباشر بشبكات افتراضيَّة غير مستقلة عن الرؤى الايديولوجيَّة، لذا نتساءل: هل سيعوض حقاً مجتمع الشبكات العالمي المجتمع الصناعي والزراعي.

يطرح بدوره دارن بارني David Barney في في نفس الكتاب "المجتمع الشبكي" نظرتين مختلفتين في المسألة الثقافية، أطروحة التجانس الثقافي، وأطروحة التشظي الثقافيّ، إذ إنَّ التقانة الرقمية طرحت مفهوم الثقافة العالمية المتجانسة حيث تجتمع الثقافات المحلية في وعاء واحد، وتتبادل التأثير والتأثر، ما يؤدي إلى محو الفروق الثقافية قومياً ومحلياً وعولمة الثقافة، ويمكن ملاحظة هذا التأثير في قدرة الثقافة الأميركية الترفيهية والاستهلاكية على اكتساح العالمين الغربيّ والشرقيّ بسهولة تامة، نظراً لضعف قدرة الحكومات المحلية على مراقبة تدفق البيانات الهائل في البيئة الشبكية والتدخل في الصناعاتِ الثقافيّةِ، وهذا ما يفسر تأثر مجتمعاتنا بالمضامين الإعلامية التي زرعت

قيماً جديدة عند شرائح مختلفة في مجتمعاتنا، رغم تعارض أفكارها وقيمها مع قيمنا المحلية. هذا من جهة، لكن من جهة أخرى، يجادل أنصار أطروحة " التشظي الثقافيّ" ، بأنَّ التقانةَ الرقمية مصممةٌ بحيث تسمح بالحرية الكاملة في اختيار المواد الثقافيّة، مع مجال كبير للاختيار ولا مركزية في إنتاج المعطيات وتوزيعها، إذ تصبح الثقافة اختياراً شخصياً لا جماعياً. ويجدرُ هنا ذكرُ، أنَّ الحرية في الاختيار تخفي وراءها استراتيجيات تجارية وتسويقية وعلاقات قوة بين فواعل دولية، وما يؤكد ذلك سيطرة المؤسسات الثقافيّة والإعلاميّة الدوليّة العملاقة على المحتوى الرقمي الإلكتروني، وتقنيات "خلق الحاجات" التي تستخدمها في هذا السياق .

وما نستنتجه من خلال طرح هذه النظرية فإن "مجتمع الشبكات" هو ذلك المجتمع الذي تقوم فيه "الشبكات" بتشكيل بناه الاجتماعية، حيث ترتكز هذه الشبكات على تقنيات التواصل، فمن خلال طبيعة البنية الاجتماعية يمكن فهم التراتبات التنظيمية للكائنات البشرية المتجلية في الخبرات والتجارب والمعارف والفنون واللغة والمسكن والملبس والغذاء والدواء وغيرها. بحيث أصبح مفهوم " مجتمع الشبكات" الذي يرادف أحيانا " مجتمع المعلومات" مفهوما واسع الانتشار بفضل الدراسات الكثيرة التي أصبحت تهتم به من زوايا مختلفة، وبفضل التطور الذي تعرفه وسائل الاتصال الحديثة، فمهما تكون امتداداته المعرفية يبق مجتمع الشبكات هو ذلك المجتمع الذي ما عاد يعتمد في الأساس على انتاج القيمة المادية، بل أصبح يقوم على إنتاج المعرفة (المعلومة)، والملاحظ أن فكرة " مجتمع الشبكات" ترتبط أوثق الارتباط بنشأة تكنولوجيا المعلومات مثل أجهزة الكمبيوتر ونظم الاتصالات الالكترونية وتكمن دواعي استخدام تكنولوجيا المعلومات في إتاحة الفرصة لتطبيق أفضل لقوانين جديدة مثل قانون اقتصاد الوقت والجهد.

ثالثا: نظرية الاستخدامات والاشباعات

يتعرض الجمهور لمواد إعلامية لإشباع رغبات كامنة معينة لدوافع الحاجات الفردية عبر وسيلة معينة ما يؤدي إلى استجابة جزئية أو كلية لمتطلبات أو حاجات أو دوافع الفرد التي يستخدم هذه الوسيلة ويتعرض لتلك المادة. وهي افتقار الفرد أو شعوره بنقص في شيء ما مما يحقق تواجده فيلا حالة من الرضا والإشباع والحاجة قد تكون فيولوجية أو نفسية.

وتسعى نظرية الاستخدامات والإشباعات إلى تحقيق ثلاث أهداف رئيسية:

ـ التعرف على كيفية استخدام الأفراد لوسائل الإعلام والاتصال وذلك بالنظر إلى الجمهور النشط، الذي يستخدم الوسيلة التي تشبع حاجاته وأهدافه.

ـ توضيح دوافع استخدام وسيلة بعينها والتفاعل مع نتيجة هذا الاستخدام.

ـ التركيز على فهم عملية الاتصال الجماهيري يأتي نتيجة لاستخدام وسائل الاتصال الجماهيري.

والمفهوم الأساسي لهذه النظرية أن الإنسان ليس مجرد عامل سلبي بل هو عامل إيجابي متأثر ومؤثر في الوقت نفسه

-العناصر الرئيسية لنظرية الإستخدامات والاشباعات:

ـ توقعات الجمهور من وسائل الإعلام: وتختلف توقعاتهم وفقا للفروق الفردية ووفقا لاختلاف الثقافات، أي أن دوافع تعرض الفرد لوسائل الإعلام والاتصال تعتبر سلوكية ذات قيمة إيجابية للهدف الذي يسعى إليه الفرد من استخدامه لهذه الوسائل.

ـ التعرض لوسائل الإعلام والاتصال: أشارت الدراسات العديدة إلى وجود علاقات ارتباط في البحث عن الاشباعات وا لتعرض لوسائل الإعلام والاتصال، ويعبر زيادة تعرض الجمهور بوجه عام لهذه الوسائل عن نشاط هذا الجمهور وقدرته على اختيار المعلومات التي تلبي حاجاته.

ـ الاشباعات الناتجة عن التعرض: وتتمثل في الاشباعات التي يبحث عنها الجمهور من خلال تعرضهم لوسائل الإعلام والاتصال والتي تحقق فعلا نتيجة التعرض.

ـ دوافع الجمهور من وسائل الإعلام: تقوم على أساس أن دوافع التعرض لوسائل الإعلام والاتصال الجماهيري وتؤدي إلى توقعات تمكن من اشباعات من خلال استخدام تلك الوسائل الجماهيرية، وأن دوافع استخدام هذه الوسائل ومضامينها ترتبط بمتغيرات ديموغرافية متعددة كالجني، النوع، التعليم، والمستوى الاقتصادي والاجتماعي، ومن ثم فإن تأثير وسائل الإعلام والاتصال يرتبط بهذه المتغيرات.

فروض نظرية الاستخدام و الاشباعات:

تعتمد نظرية الاستخدامات و الاشباعات على مجموعة فروض أساسية وضعها "إلياهو و كاتز" و كل من "بلوملر و جورفيتش" و هذه الفروض هي:

– جمهور المتلقين هو جمهور نشط، و استخدامه لوسائل الإعلام هو استخدام موجه لتحقيق أهداف معينة .

– يمتلك أعضاء الجمهور المبادرة في تحديد العلاقة بين إشباع الحاجات و اختيار وسائل معينة يرى أنها تشبع حاجاته

– تنافس وسائل الإعلام مصادر أخرى لإشباع الحاجات مثل الاتصال الشخصي أو المؤسسات الأكاديمية أو غيرها من المؤسسات ، فالعلاقات بين الجمهور ووسائل الإعلام تتأثر بعوامل بيئية عديدة تجعل الفرد يتجه إلى مصدر ما لإشباع حاجاته دون الآخر، و هذا ما عبر عنه "كلابر " بتأثيرات العوامل الوسيطة.

– الجمهور هو وحده القادر على تحديد الصورة الحقيقية لاستخدامه وسائل الإعلام لأنه هو الذي يحدد اهتماماته و حاجاته و دوافعه و بالتالي اختيار الوسائل التي تشبع حاجاته.

– الأحكام حول قيمة العلاقة بين حاجات الجمهور و استخدامه لوسيلة أو محتوى معين يجب أن يحددها الجمهور نفسه لأن الناس قد تستخدم نفس المحتوى بطرق مختلفة بالإضافة إلى أن المحتوى يمكن أن يكون له نتائج مختلفة. تسعى نظرية الاستخدامات و الاشباعات من خلال الفروض السابقة إلى تحقيق الأهداف التالية :

– الكشف عن كيفية استخدام الأفراد لوسائل الإعلام وذلك بالنظر إلى الجمهور النشط الذي يستطيع أن يختار و يستخدم الوسائل التي تشبع حاجاته و توقعاته .

– الكشف عن دوافع الاستخدام وسيلة معينة و التفاعل الذي يحدث نتيجة هذا التعرض .

– الفهم العميق لعملية الاتصال من خلال النتائج التي يتم التوصل إليها .

– الكشف عن الاشباعات المطلوبة التي يسعى الفرد إلى تلبيتها من خلال استخدامه لوسائل الاتصال و الاشباعات المختلفة من وراء هذا الاستخدام .

– الكشف عن العلاقات المتبادلة بين دوافع الاستخدام و أنماط التعرض لوسائل الاتصال و الاشباعات الناتجة عن ذلك .

– معرفة دور المتغيرات الوسيطة من حيث مدى تأثيرها و كل من استخدامات الوسائل و إشباعاتها.

نظرية.

عناصر نظرية الاستخدامات والإشباعات:

حدد كل من كاتز وبلومر جورفيتش Katz & Blumler & Gurvitch عناصر الاستخدامات والإشباعات كما يلي:

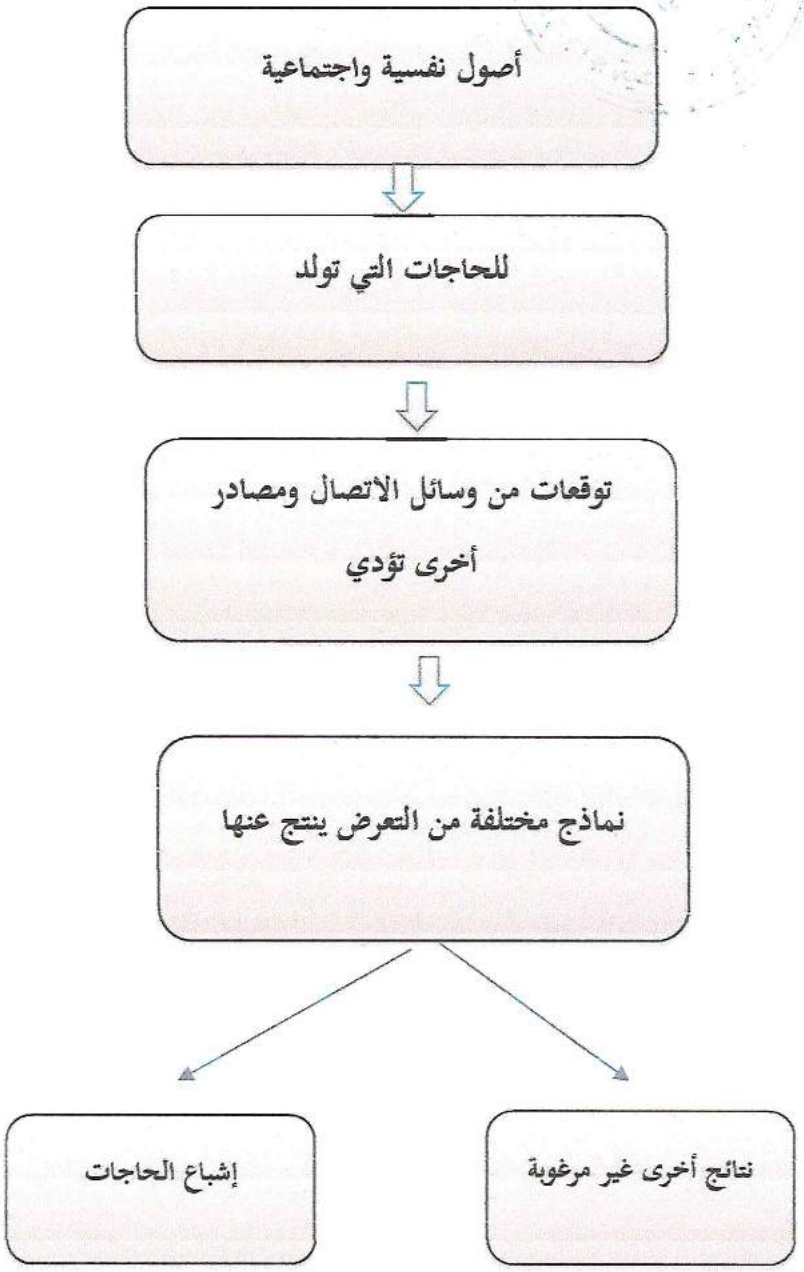

الشكل (9) يبين عناصر نظرية الاستخدامات والإشباعات عند كاتز وزملاؤه

أ/ الأصول الاجتماعية والنفسية لاحتياجات الجمهور:

يرى كاتز وزملاؤه أن الاحتياجات تعود في الأصل إلى أصول اجتماعية ونفسية للأفراد، مما يولد توقعات معينة من وسائل الإعلام وأنماط مختلفة من التعرض ، ينتج عنها إشباعات لاحتياجات معينة ونتائج أخرى وتختلف التوقعات باختلاف الأفراد واختلاف الثقافات وتنتج التوقعات عن دوافع الجمهور للتعرض لوسائل الاتصال وتعد التوقعات سببا في عملية التعرض لوسائل الإعلام.

رابعا: نظرية انتشار المبتكرات

ظهرت هذه النظرية خلال السنوات الأخيرة من الخمسينات وبداية الستينات متأثرة بنظرية تدفق المعلومات على مرحلتين ، وتعود أصول نظرية انتشار المبتكرات إلى دراسات متفرقة قام بها الباحثون الاجتماعيون في عدة ميادين مثل: الأنثروبولوجيا والتربية والزراعة، تركز هذه النظرية على نشر المعلومات المتعلقة بالمبتكرات والتجديد بين أفراد المجتمع أو قطاع منه بهدف تحقيق التنمية، وهو في الأخير (التغيير) يعتبر الهدف النهائي لها.

انتشار المبتكرات أو انتشار الابتكارات هي نظرية تسعى إلى شرح كيفية انتشار الأفكار والتقنيات الجديدة، وسبب هذا الانتشار، ومعدله. نشر إيفرت روجرز، أستاذ دراسات التواصل، هذه النظرية في كتابه "انتشار المبتكرات"، الذي نُشر لأول مرة في عام 1962، يقول روجرز بأن الانتشار هو العملية التي يجري من خلالها نقل الابتكار مع مرور الوقت بين المشاركين في النظام الاجتماعي. تتنوع أصول نظرية انتشار المبتكرات وتغطي تخصصات متعددة.

في عام 1962، نشر إيفرت روجرز، أستاذ علم الاجتماع الريفي، عمله الأساسي :انتشار المبتكرات، حيث قام مع الباحث شوميكر بالمراجعة والتدقيق في أكثر من 5000 دراسة متعلقة بانتشار كل ما هو من المبتكرات الجديدة في مجال الأنثروبولوجيا بهدف التعرف على آليات تبني الأفكار والمستحدثات من قبل الجمهور ليؤكدا في الأخير من خلال نموذجهما دور البيئة الاجتماعية في التأثير على سريان الإعلام والاتصال بشكل انتقالي يظل خاضعا للفئات الاجتماعية التي ينتمي إليها، ذلك أن الفرد يتحرك في إطارها بما في ذلك دور قادة الرأي في تمرير المعلومات والتي يشتقونها من المصادر الإعلامية إلى غيرهم ممن يتعرضوا للإعلام بشكل كاف.

والابتكار وفق هذه النظرية هو أي فكرة جديدة أو أسلوب أو نمط جديد يتم استخدامه في الحياة كفكرة تنظيم الأسرة أو إدخال أساليب جديدة في الزراعة أو استحداث وسيلة اتصالية أو غير ذلك

نموذج روجرز وشوميكر لانتشار المبتكرات:

وصف روجرز وزميله عناصر عملية تدفق المعلومات الخاصة بانتشار المبتكرات بالاقتباس من نموذج "ديفد برلو" كما يلي:

المصدر: المخترعون والعلماء وعوامل التغيير الاجتماعي وقادة الرأي.

الرسالة: الابتكار الجديد.

الوسيلة: قنوات وسائل الإعلام وقنوات الاتصال الشخصي.

المستقبل: أعضاء الجمهور في النظام الاجتماعي.

الأثر: تغيير في الأفكار والاتجاهات والسلوك.

فرضيات النظرية:

تقوم هذه النظرية على افتراض أن قنوات وسائل الإعلام تكون أكثر فاعلية في زيادة المعرفة حول المبتكرات، حيث تكون قنوات الاتصال الشخصي أكثر فعالية في تشكيل المواقف حول المبتكرات الجديدة.

يقترب مدخل انتشار المبتكرات من افتراض أن الرسائل الإعلامية تصل إلى الجمهور عن طريق أفراد يتميزون عن سواهم بأنهم أكثر اتصالا ونشاطا في تعاملهم مع وسائل الاتصال الجماهيري ويطلق عليهم قادة الرأي.

عوامل نجاح نظرية انتشار المبتكرات:

حدد ايفريت روجرز عدد من العوامل اللازمة لنجاح نظرية انتشار المبتكرات والتي تتمثل في:

قنوات الإتصال: يعتمد نجاح الأفكار الجديدة على انتشارها والذي يتحقق من خلال وجود قنوات اتصال تنتقل من خلالها الفكرة بين الأشخاص في البيئة الإجتماعية الواحدة حيث يتم تناقل المعلومات ومشاركة الخبرات والآراء المختلفة حولها.

البيئة الإجتماعية: هي المجتمع الذي يتم ترويج الفكرة فيه والذي يشمل العادات والتقاليد والأنماط السلوكية للأفراد وكلما كان أفراد المجتمع مستعدون لتقبل الأفكار الجديدة كلما ساعد في نشرها وترويجها خلال وقت قصير.

الوقت: عند الوصول إلى فكرة جديدة يضع القائمون عليها معدل زمني يمكن من خلالها تحقيقها وضمان انتشارها ويتم تحديد هذا الوقت بناءً على ظروف المجتمع ومدى تقبله للأفكار الجديدة وطبيعة أفراده وظروفهم الإجتماعية إضافة إلى طبيعة الفكرة ومدى اتساقها مع الواقع الاجتماعي.

مراحل نظرية انتشار المبتكرات:

تمر نظرية انتشار المبتكرات بخمس مراحل أساسية حتى تصل إلى مرحلة الإبتكار والإنتشار في البيئة الإجتماعية، وتشمل هذه المراحل:

المعرفة: ينمو الإتجاه المعرفي لدى الشخص حول الإختراع ولكن لا يسعى للحصول على المزيد من المعارف والمعلومات حوله.

الإقتناع: بعد فترة زمنية من معرفة الشخص بالإختراع يعيد التفكير فيه ويبدأ في البحث عن فوائده وأهميته حتى يصل إلى مرحلة الإقتناع التام به وبأهميته.

اتخاذ القرار: بعدما يقتنع الفرد بالإختراع وفكرته يبحث في سبل تطبيق هذا الإختراع في الواقع بالنسبة له والعواقب التي تنجم عنه ويقيس فوائده بأضراره حتى يتخذ قرار بشأنه.

التطبيق: في حال أتخذ الشخص قرار بتجربة الإختراع يبدأ في تطبيقه على نطاق ضيق لكي يقيس حجم مخاطره قبل أن يتجه إلى تعميم التجربة وفي هذه المرحلة يقوم بجمع المزيد من المعلومات عنه.

التأكيد: يتأكد الشخص في هذه المرحلة من إنه اتخذ القرار الصحيح بشأن الإختراع ويبدأ في تعميم التجربة ومناقشة آرائه بشأنها مع مجموعة من المستخدمين للاختراع.

إيجابيات النظرية:

ساهمت هذه النظرية في وصف كيفية انتشار الأفكار المستحدثة وتغيير الأساليب والدوافع التي تقود الأفراد إلى الاقتناع وتبني المبتكرات، أما في مجال الإعلام والاتصال ساهمت في معرفة كيفية تبني الأفراد لوسيلة من وسائل الاتصال الجديدة دون غيرها كالفضائيات أو شبكة الانترنت في ضوء مراحل التبني السابقة.

الانتقادات الموجهة لنظرية انتشار المبتكرات:

لقيت نظرية انتشار المبتكرات شيوعا وانتشارا في بداية الستينات خاصة في دول العالم الثالث غير أنها واجهت فيما بعد السبعينات جملة من الانتقادات هي:

-إن تطبيق هذه النظرية والعمل بها في دول العالم الثالثأدى إلى اتساع فجوة المعلومات وازدياد الفروقات الاجتماعية والاقتصادية بين فئات المجتمع، لأن الفئات المتقدمة اقتصاديا واجتماعيا تشجع أكثر من غيرها على التجديد وممارسة الإقبال على تلقي المعلومات أكثر من غيرها من الفئات الفقيرة.

-دعم اتفاق الباحثين والدارسين لهذا الانتشار في تعريف محدد للتنمية.

-إيمان الباحثين وعلى رأسهم روجرز بقوة تأثير وسائل الاتصال على قادة الرأي ، أي أن هذه النظرية أخذت مبدأ سريان المعلومات في اتجاه واحد أي من الحكومة ومراكز التنمية إلى الجمهور المتلقي.

-الارتباط الكبير لنموذج انتشار المبتكرات بنظريات النظم للاعلام لقناعتها بأهمية الإعلام وقدرته وبذريعة التنمية وخدمة برامجها تسعى السلطات الحاكمة إلى خلق رأي عام وإقناع الجماهير بأفكارها والعمل بها وفق ما جاءت به أفكار نظرية انتشار المبتكرات.

3- المجتمع الافتراضي

ظهر مصطلح المجتمعات الافتراضية في بادئ الأمر على يد "هارولد رانجولد" في كتابه "الحياة في ظل التقدم التكنولوجي" حيث قال فيه بأن ما يحتاجه الناس هو إيجاد فرصة لتكوين علاقات مع جيرانهم المتواجدين في أماكن بعيدة من القرى العالمية حتى ولو عبر الشبكة العنكبوتية.

فالمجتمعات الافتراضية حسب Maria Valtersson هي " جموع من الناس يتواصلون فيما بينهم عبر جهاز الكمبيوتر عن طريق الانترنت في شتى المواضيع "فهي مجتمعات فعلية تتكون من مجموعات من الناس الذين هم على اتصال منظم مع بعضهم البعض". وهذه المجتمعات الافتراضية يتم تشكيلها من قِبل أناس لهم مصالح مشتركة وأهداف محددة.

وعرفت أيضا بأنها " مجتمعات تتكون من أشخاص متباعدين جغرافيا ولكن الاتصال والتواصل بينهم يتمّ عبر الشبكات الإلكترونية وينتج بينهم نتيجة لذلك الاحساس بالولاء والانتماء .

وتعرف أيضا على أنها " مجموعات ناشئة من خلال الانترنت حيث يكون للمستخدمين القدرة على التعارف وخلق النقاشات لتشكيل وعي جمعي وعلاقات شخصية عبر الفضاء الافتراضي".

ترث المجتمعات الافتراضية العديد من العناصر الثقافية من المجتمعات التي تمتد عبرها، فإن العديد من الباحثين في مجال علم الاجتماع كتبوا عن تطوير الكيانات الاجتماعية على الانترنت والتي تشكلت في الفضاء الافتراضي، تلك الكيانات الاجتماعية الرقمية الجديدة تكونت في هيئة جماعات رقمية يتحاور ويتواصل من خلالها الأفراد.

إثنوغرافيا على الخط:

يُقصد بالاثنوغرافيا وصف جماعة ما، بمعنى محاولة الاجابة على أسئلة تتعلق بحياة الجماعة أو الافراد وهي بذلك تربط بين الثقافة والسلوك الانساني عبر فترة زمنية معينة وتركز على معارف تفصيلية للحياة الاجتماعية باستخدام لدراسة جماعة ما، وقد عرّفها عمر عبد الجبار منهج بحثي يعتمد على تقنية الملاحظة كأداة هامة من أدواته

"بأنها منهج بحث فعّال يُنتج بيانات غنية ومتعمقة مقارنة بالمناهج الاخرى، كما أنه يمكّننا من أن نوفّر فهما أوسع للعمليات الاجتماعية[1] .

وهي المراقبة أو الملاحظة المباشرة للسلوك الاتصالي لمجموعة اجتماعية وإعداد وصف كتابي بخصوصها لإيجاد التفسيرات المناسبة لهذه الملاحظات[2].

تستخدم الاثنوغرافيا على الخط داخل أوساط المجتمعات المشكّلة عبر شبكة الانترنت وتستهدف وحدة التحليل فيها الأفراد أو الجماعات وتتمّ جميع المقابلات والاستجابات من خلال وسيط وهو الانترنت عبر أحد المواقع الشبكية لجمع معلومات عن الفرد أو الجماعة. [3]

2- خصائص المجتمع الإفتراضي:

إن أهمية الأنترنت تكمن في قدرتها على تغيير مفاهيم الاتصال " الذي يعد بمثابة ثقافة تعبر عن طريق الكلام أو الرموز وتتخذ موقفا معينا في العالم الاجتماعي" [4].

وقد ازدادت تلك الأهمية مع انتشار شبكات التواصل الاجتماعي التي " أصبحت مواقعها هي الأشهر والأكثر استخداما وتأثيرا على مستوى العالم"[5]. و هي التي غيرت طريقة الاتصال والتفاعل بين المستخدمين الذين شكلوا مجموعات افتراضية تتفاعل فيما بينها من خلال مناقشة العديد من المواضيع في جميع المجالات وهذا ما أصبح يعرف اليوم "بالمجتمع الإفتراضي" الذي يختلف عن المجتمع الواقعي (المحلي)، فمع التقدم التقني والتكنولوجي وظهور الأنترنت ظهرت مجتمعات جديدة يتشكل داخلها مجموعات من الأشخاص تربط بينهم مجموعة من العلاقات وهي تتجلى في مجموعات المحادثة الإلكترونية وهي عبارة عن منتديات للمحادثة تتمثل في تطبيقات وبرمجيات اتصالية تفاعلية تسمح للمستخدم بالتواصل مع الآخرين في الوقت الحقيقي المتزامن مثل: مجموعات الأخبار، غرف الدردشة، التراسل الفوري وفي الوقت اللاتزامني مثل منتديات النقاش والبريد الإلكتروني[6] .

---

[1] عمر عبد الجابر، **دراسات اجتماعية**، ط1، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ، 2018،ص24.

[2] علي محمد رحومة. **علم الاجتماع الآلي**. ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008، ص 160

[3] وليد رشاد زكي، **نظرية الشبكات الاجتماعية من الايديولوجيا الى الميتودولوجيا**، ط1، المركز العربي لابحاث الفضاء الالكتروني، مصر،2012، ص 13

[4] Winkin. H. **Anthropologie de la communication, de la theorie au terrain**, edition de Boek Universite, Paris, 2001.p15

[5] عباس مصطفى صادق. **الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2008، ص 15.

[6] بلقاسم بن روان. **وسائل الإعلام والمجتمع (دراسة في الأبعاد الاجتماعية والمؤسساتية)**، دار الخلدونية، الجزائر، 2007 ، ص 177

وما يميز الحقل الإفتراضي هو أنه لا تهم الدرجات العلمية أو المكانة الاجتماعية والمستوى الاقتصادي لأعضاء المجتمع الإفتراضي، وأصبح لكل عضو الحق في إبداء آرائه، فبعدما كانت الاتصالات خطية مباشرة من مرسل إلى متلقي أحدثت الوسائل التكنولوجية التفاعلية على غرار الشبكات الاجتماعية ثورة غيرت مسار الاتصالات، فهذه التفاعلية أعطت للفرد الفرصة بشكل أكبر أن يشارك ويسهم بشخصه في الموضوع تعليقا أو تحليلا أو نقدا، وفي إطار تدرجه ذلك ينعكس الأمر على شخصيه وتتحول من شخصية منغلقة ومجرد شخصية هامشية إلى شخصية على الأقل تمتلك رؤية وهذا الأمر لا ينطبق على الأفراد في المجمع الواقعي.

وما يميز الاتصال بين أعضاء المجتمع الإفتراضي هو "التفاعلية" التي تتضمن التخاطب الفوري والتي تمكن المستخدم من التفاعل وإبداء آرائه وهناك أنواع من التفاعلية، منها: الإرشادية والتي ترشد المستخدم إلى الصفحة التالية أو الرجوع إلى الصفحة التي قبلها، والتفاعلية الوظيفية والتي تتم من خلال البريد الإلكتروني والحوار، والتفاعلية الكيفية وهي التي تتيح لموقع الشبكة أن يتكيف وسلوك المستخدم[1] .

أصبح يطلق على هذا المجتمع عدة تسميات منها " المجتمع الرقمي"، " المجتمع الافتراضي" أو " المجتمع على الخط" والذي أصبح يضم آلافا من الأشخاص من مختلف بقاع العالم مع اختلاف أوطانهم وثقافاهم ولغاتهم ودياناتهم ومستوياتهم التعليمية وظروفهم الاجتماعية والاقتصادية، فبالرغم من كون هناك عامل الحيز الجغرافي الذي يفصل بينهم إلاّ أنهم يجدون داخل هذه المجموعات الافتراضية نوع من التفاعل والتأثير فيما بينهم، بمعنى أن هذا المجتمع شكّل مجموعات جديدة بما فيها من علاقات اجتماعية جديدة بعيدة عن الرسميات والفروقات يتبادل أعضاءها المعارف والخبرات والثقافات وذلك لتحقيق أهداف مشتركة.

انطلاقا مما سبق يمكن استنتاج أهم خصائص المجتمع الافتراضي فيما يلي:

– هو نظام اجتماعي تكنولوجي.

– الوعي بحدود العضوية والهوية الرقمية الجماعية، فالمحور الحقيقي لحركة الأنترنت يدور حول " الذات الافراضية" و "الهوية الرقمية" للكائن الإلكتروني [2] .

– باستطاعة كل فرد تنظيم هذا المجتمع وتحقيق الإضافة لنظامه وعاداته وقواعده.

– امكانية استخدام أفراده لهويات وأسماء مستعارة قد تكون لمشاهير مثلا.

---

[1] عبير الرحباوي. **الإعلام الرقمي (الإلكتروني)**. ط1، دار أسامة للنشر والتوزيع، عمان، 2012، ص 139.

[2] محمد علي رحومة. مرجع سابق، ص 151

– هو عبارة عن شبكة اجتماعية لمجموعة من الأفراد الذين يتفاعلون فيما بينهم باستخدام الوسائل التكنولوجية الحديثة، متجاوزين كل الحواجز الجغرافية سعيا وراء الأهداف والاهتمامات المشتركة.

– هو بوابة جديدة للتفاعلات التي تخرج عن إطار المجتمع الواقعي (المحلي).

– عدم التجانس بين أفراده من حيث السن، المسوى التعليمي والمهني، والاجتماعي والاقتصادي وغيرها.

– امكانية بناء علاقات افتراضية مع أشخاص افتراضيين من مختلف الجنسيات.

– استخدام لغة تواصلية مبنية على الرموز اللغوية والأيقونات.

– وجود المعلومات وتوفرها للجميع.

– بقدر ما يتوغل الشخص فيه ويتعزز حضوره فيه ينفصل أكثر عن المجتمع الواقعي.

– اختلاف أهداف أفراد هذا المجتمع بين ما هو محدد كالالتقاء من أجل تحقيق مشروع معين، وقد تنتهي الجماعة بتحقيقه، ومنها ما هو مبني على تبادل التجارب الشخصية والنقاش حول مواضيع معينة.[1]

– صعوبة دراسته نظرا لكثرة أفراده وتنوعهم واختلافهم وعدم القدرة على معرفة هوياتهم الحقيقية.

3– البحث الإثنوغرافي الافتراضي:

يجرى البحث الإثنوغرافي الافتراضي لدراسة مجموعة افتراضية دراسة معمّقة تجعل الباحث يفهم موضوعا ما أكثر تعقيدا، مع ضرورة أن تكون الجماعة المدروسة استمرت معا لفترة من الزمن وتحمل بعض القيم المشتركة والمعتقدات واللغة، وعليه يقوم الباحث بتحديد قواعد السلوك مثل: العلاقات الاجتماعية الافتراضية، طبيعة التفاعل بين أعضاء المجموعة، ولذا عليه تسجيل كل المعلومات والسلوكات والمعتقدات وطريقة تناولهم للمضامين الإعلامية الإلكترونية الخاصة بالجماعة المدروسة.

فالبحث الإثنوغرافي الإفتراضي إذا هو أداة وطريقة لفهم أساليب وطرق بناء العلاقات الافتراضية لمجموعة ما وفهم سلوكات أفرادها، الهدف منه توضيح أنماط وكيفية استخدام الأعضاء وكذا تفاعلهم من خلال الوسائل الإلكترونية كالشبكات الاجتماعية، وكذا وصف سلوكاتهم واتجاهاتهم وتمثلاتهم الثقافية، إضافة إلى التأويلات والتفسيرات المختلفة التي يعطيها الأفراد للرسائل أو المضامين المتداولة بينهم إلكترونيا، ولهذا لابد للباحث في مثل هذه الدراسات أن يفهم لغتهم واعتماد وتبني نفس تصوراتهم وكذا المفاهيم السائدة، كما يتوجب عليه الأخذ

[1] شوقي العلوي. **رهانات الأنترنت**. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2006، ص 166.

بالقيم التي يعتنقونها ويعمل معهم .[1] ولن ينجح هذا البحث إلا باستخدام المنهج الإثنوغرافي الذي يهتم بجمع بيانات المفحوصين من الميدان لفهم أساليب وطرق عيش مجتمع ما في الحياة اليومية، وذلك من خلال معرفة أعضائه ومعتقداتهم وقيمهم وسلوكاتهم، فمن خلال هذا المنهج يمكن التعرف أكثر على ثقافات الشعوب والاقتراب منهم لمعرفة أحوالهم وأخبارهم في شتى الميادين.[2]

من أهم أدواته الملاحظة بالمشاركة والمقابلة بنوعيها الموجهة وغير الموجهة والسؤال المطروح هنا: هل يمكن استخدام هذه الأدوات لدراسة المجتمع الافتراضي بنفس الطريقة التي تستخدم بها لدراسة المجمع الواقعي (المحلي)؟

هذا ما سنوضحه من خلال الجدول الآتي:

المجتمع الواقعي	المجتمع الافتراضي
دراسة المجتمع في واقعه الطبيعي	دراسة المجتمع في السياق الافتراضي المشكّل عبر الأنترنت
العينة بما أنها محصورة بحيز جغرافي بإمكان اختيار مفرداتها.	العينة بما أنها غير محصورة بحيز جغرافي فإن اختيار مفرداتها صعب.
تجانس المبحوثين	عدم تجانس المبحوثين
طرق البحث تكون من الواقع المعاش	طرق البحث تكون من شبكة الأنترنت
تتم الملاحظة بالمشاركة بمعايشة الباحث المجموعة في الواقع وذلك بتعلّم أساليب حياتهم اليومية	تتم الملاحظة بالمشاركة من خلال انضمام الباحث للمجموعة الافتراضية من خلال التفاعل مع أعضائها والدخول معهم في علاقات افتراضية.
الحضور الشخصي للباحث	غياب الحضور الشخصي للباحث
يمكن للباحث ملاحظة كل السلوكات بما فيها لغة الجسد (حركات الجسد، نظرات العين، نبرات الصوت، رمزية اللباس وغيرها) وإعطاء تفسيرات لها	غياب مظاهر لغة الجسد وبالتالي تكون المعلومات المتحصل عليها ناقصة
يلاحظ الباحث كل التفاصيل الخاصة بالحياة اليومية للمبحوثين	توجد حلقات ناقصة في سلسلة ملاحظات الباحث وعجزه عن استدراكها عبر الفضاء الإلكتروني
تتم المقابلة وجها لوجه أي بدون وسيط	تتم المقابلة من خلال وسيط المتمثل في الأنترنت
تكون المقابلة مع أشخاص ذوي هويات حقيقية مما يؤدي إلى تحقيق الهدف من الدراسة وهو	تكون المقابلة الافتراضية مع بعض الأشخاص بهويات مستعارة الأمر الذي يؤثر على نتائج الدراسة

[1] عاطف وصفي. **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 2004، ص 167.

[2] Markus Schleicher and Eric Hirsch. **Ethnography and the crisis of context in studies of edia**, science and technology, S.A.G.E publication, London, 2001, p 70

الوصول إلى نتائج صادقة	
النتائج تكون دقيقة خاصة بعد معايشة الباحث كل مظاهر السلوك بكل تفاصيله.	النتائج مشكوك فيها وغير دقيقة، لأن هناك من لديه أكثر من حساب، كما قد تكون تعليقاتهم مكررة حول مواضيع معينة.

الجدول رقم (2) يبين المقارنة بين المجتمع الواقعي والمجتمع الافتراضي

المحور الخامس: المشكلات المنهجية التي تعترض الإثنوغرافيا الإفتراضية

إن الباحث في الدراسات الاثنوغرافية، خاصة تللك المتعلقة بدراسة ثقافات المجتمعات، يجد العديد من الصعوبات في بحثه الذي يلزمه بمشاركة المبحوثين حياتهم اليومية حتى يتمكن من تسجيل الملاحظات التي تمدّه بالبيانات اللازمة للوصول إلى النتائج المرجوة.

الاشكالات المنهجية في دراسات الاثنوغرافيا على الخط:

يعترض الباحث في الدراسات الاثنوغرافية على الخط بعضا من الاشكالات التي تصادفه عندما يدرس المجتمعات الافتراضية دراسة اثنوغرافية خاصة كتلك المتعلقة بتمظهر الثقافات المتنوعة في البيئة الاتصالية الجديدة، ومن بين هذه الاشكالات ما يلي:

1 –إشكال عدم مشاركة الباحث للمبحوثين في واقع حياتهم:

وهي من بين أهم الاشكالات التي يلاقيها الباحث الاثنوغرافي على الخط والمتمثلة في عدم قدرته على معايشة المجتمع المبحوث واقعيا، حيث يتكون هذا المجتمع الافتراضي من أعضاء لا يتواجدون في الرقعة الجغرافية ذاتها، بل يتوزعون في عدة أماكن ويجتمعون فقط افتراضيا على الخط، وبالتالي يتوجب على الباحث أن يعيش على الخط مع متابعي صفحة ما أو أعضاء مجموعة معينة ليرصد منشوراتهم، تعليقاتهم، تفاعلاتهم، ردود أفعالهم اتجاه بعضهم البعض، ليجمع بذلك الملاحظات على ما يحدث من اتصالات(نوعها، توقيتها، دلالاتها، أهدافها) وغياب الحضور الشخصي للباحث عن المبحوثين يُغيّب عنه العديد من مظاهر الاتصال غير اللفظي الإشارة الإيماءة تعابير الوجه، نظرات العينين، نبرة الصوت، حركات الجسد، رمزية اللباس...الخ) هذه المظاهر التي تعطي للاتصال دلالات مختلفة عما نلاحظه عبر المواقع الالكترونية على شاشات الحواسيب والهواتف الذكية والألواح الإلكترونية وتكمن الاشكالية في أن الباحث الاثنوغرافي على الخط يشعر بالعجز ويستدرك الحلقات الناقصة في سلسلة ملاحظاته، ما يجعله عند القيام بتحليل هذه الملاحظات وتفسيرها عاجزا عن توفير رؤية واضحة لنتائج بحثه.

2 –إشكال صعوبة اختيار عينة البحث:

غالبا ما يقع اختيار الباحث الاثنوغرافي على الجماعة أو المجتمع الذي يود دراسته اثنوغرافيا بما يوصله إلى أهدافه من البحث، ولا يجد في ذلك صعوبة في الواقع، فالجماعات والمجتمعات واضحة الاختلاف والتباين عموما ويمكن للباحث الاختيار الحسن لعينة الدراسة. أما بالنسبة لاختيار العينة المبحوثة في دراسات الاثنوغرافيا على الخط، فيجد الباحث صعوبة نوعا ما لأسباب الآتية:

ا) وجود مجموعات افتراضية أو صفحات كثيرة جدا في الفضاء الافتراضي تتشابه من حيث (عدد أعضائها، انتماءاتهما أعمارهم، مستوياتهم الدراسية والمادية، أفكارهم وثقافاتهم) وبالتالي يصعب الاختيار فيما بينها، وكمثال على ذلك، عند اختياري لعينة من الصفحات الثقافية الأمازيغية وجدت صعوبة كبيرة، بينما أرى أن الاختيار سيكون سهلا عند التعامل مع المجتمع في الواقع، وهذا ما أشار لي به العديد من القائمين بدراسات اثنوغرافية في الواقع.

ب) حدوث تغير تام في توجهات بعض المجتمعات الافتراضية (صفحات أو مجموعات) وهذا فجأة ودون تمهيد لذلك، إذ تختلف المنشورات عن ما سبق وقد تتحول الصفحة من ثقافية إلى رياضية أو سياسية وتبتعد من خلال منشوراتها وكذا التفاعل مع هذه المنشورات عما عهدناه منها سابقا، وبالتالي تضع الباحث أمام إشكالية عدم تمثيل العينة لما يريده الباحث.

ج) يصادف الباحث الاثنوغرافي على الخط وبعد اختياره لمجتمع افتراضي (صفحة ما) وبعد العمل عليها طيلة أشهر (تسجيل الملاحظات) تختفى الصفحة تماما وهذا لا يحدث أبدا للباحث الاثنوغرافي في الواقع.

3 –إشكال القيام بالمقابلات الافتراضية:

يعتمد الباحث منهجيا على البيانات الشخصية التي يمدّه بها أصحابها، وقد يقع في احتمالية الوقوع في خطأ البيانات غير الدقيقة والهويات المجازية لإخفاء الهويات الحقيقية وبالتالي، فالباحث قد يجري مقابلات مع الأشخاص غير المناسبين، وقد لا يكتشف ذلك إلا بعد انتهاء المقابلة وهذا ما يجعل جهوده للبحث في هذا المجال مضاعفة، وقد لا يكتشف هذا الخطأ في البيانات الشخصية وبالتالي تكون نتائجه المبنية على الخطأ خاطئة أو غير دقيقة.

وكمثال على ذلك، يريد الباحث إجراء مقابلة مع عشرة ذكور وعشرة إناث من الأعضاء المتابعين للصفحة، فيكتشف بأنه أجرى المقابلة مع سبعة عشر ذكرا وثلاثة إناث فقط وعليه تكون النتائج غير سليمة.

كما يحدث أن يتخوف بعض المستخدمين من إعطاء بياناتهم الشخصية الحقيقية عبر الوسائط الإلكترونية ولو أن هذا التخوف موجود أيضا في الواقع ولكن أقل وطأة منه في البيئة الاتصالية الافتراضية، ومنه لايستطيع الباحث أن يجزم بحقيقة البيانات الشخصية للمستخدمين ما يؤثر سلبا على سيرورة بحثه.

4 –إشكال امتلاك المستخدم الواحد لعدة حسابات فيسبوكية:

حيث يصبح صوت المستخدم مضاعفا، ردوده مكررة عدة مرات عند التعبير عن رأيه في قضية ما(الذباب الالكتروني) وبالتالي تختل حسابات الباحث التي يبني عليها نتائجه النهائية، فتصبح النتائج مشكوكا فيها وغير دقيقة وكمثال على ذلك، في صفحة ما يدافع الأعضاء عن اللغة الأمازيغية لكنهم يحترمون اللغة العربية، فنجد بعض المتفاعلين يسبّون العرب واللغة العربية وحتى الإسلام ليكتشف الباحث أن ذبابا إلكترونيا (أصحاب العديد من الحسابات الفايسبوكية) يطرحون ردودهم المعادية وبتعبيرات مختلفة حتى يوهموا الملاحظ أن عددا كبيرا من متابعي الصفحة ينحون في هذا الاتجاه والحقيقة ليست كذلك أبدا.

5- إشكال التداخل الواضح بين ثلاثة أنماط من مستخدمي الوسائط الجديدة:

وتتمثل الأنماط فيما يلي:

منتجي المحتوى: الذين ينتجون المنشورات في الصفحة (نص، صورة، فيديو، مقطع)

المشاركون: الذين يتفاعلون مع المنشورات من الإعجاب والتعليق

الملاحظون: الذين يرون المنشورات ويتابعونها دون التفاعل معها

ويحدث أن تختفي الحدود الفاصلة بين هذه الأنماط (وهذا لا يحدث عند متابعي الوسائل الإعلامية التقليدية) وقد يتغير السلوك الاتصالي للمستخدم الواحد من موقف لآخر، حينما يكون منتجا أو مشاركا أو ملاحظا، وبالتالي لا يثبت على رأيه وفكرته. ومثالنا على ذلك يتمثل في أن أحد الأعضاء نشر منشورا باللغة الفرنسية فعلّق عليه أحد المتابعين بوجوب استعمال العربية أو الأمازيغية وبعد أيام هو نفسه نشر منشورا باللغة الفرنسية أيضا.

ثانيا– الحلول المقترحة لتجاوز الإشكالات المنهجية السابقة:

يمكن للباحث التعامل مع هذه الإشكالات بذكاء لتجاوزها أو على الأقل الحد منها وذلك من خلال ما يلي:

1–لتجاوز إشكال عدم مشاركة الباحث للمبحوثين في الواقع:

يمكن للباحث الاثنوغرافي على الخط تعويض غيابه شخصيا عن مجتمع البحث وتجنبه عائق المكان وعدم تمكنه من التواجد مع المبحوثين في نفس المكان بما يلي:

– البقاء وقتا أطول في البيئة الافتراضية مع المجتمع الافتراضي ليلاحظ كل صغيرة وكبيرة والتدقيق في أبسط الأمور وتسجيلها على أساس أن الوقت الزائد (الزمن) يعوض شيئا ما عن عدم التواجد الفعلي في المكان.

– أن يعوّد الباحث نفسه على الملاحظة الجيدة لكل ما يدور في المجتمع الافتراضي ويطّلع على تقنيات الملاحظة العلمية ويحسنها بالتدرب عليها وأن يتحلى بالفطنة والذكاء.

– على الباحث أن يعوّض عدم احتكاكه بالمبحوثين لملاحظة اتصالهم غير اللفظي، عليه أن يعوض هذا النقص بالاستعانة بالتعبيرات الرمزية للأشكال، الوجوه التعبيرية (إيموجي)، الصور، الضحكات(هههههه)، التي تصاحب تعليقات المستخدمين ويعطيها الأهمية البالغة لأنها تعبّر عن الحزن والفرح والغضب والقلق وكل انفعالات الانسان المختلفة.

2– لتجاوز إشكال صعوبة اختيار العينة:

– من المهم جدا أن يتأنى الباحث الاثنوغرافي على الخط في اختيار مجتمعا افتراضيا للبحث(صفحة أو مجموعة)حتى يجد المجتمع الافتراضي الملائم للبحث بحيث يوصله ذلك إلى الهدف الأساسي للدراسة.

–اختيار الصفحات أو المجموعات غير الحديثة والتي قد مر على إنشائها وقت كاف يشعرنا

بثباتها على أفكارها ومواقفها.

– اختيار المجموعات أو الصفحات التي تنتمي إليها بعض الشخصيات المعروفة بأسمائها الحقيقية والتي تعطي الباحث اطمئنانا ببقاء الصفحة أو المجموعة في هذا الفضاء الافتراضي لمدة تسمح باستكمال الدراسة.

3 –لتجاوز إشكال المقابلات الافتراضية:

– يجب على الباحث الاثنوغرافي على الخط أن يعمل محققا ولا يتقبل المعلومة الواردة إليه بسهولة، بل وعليه أن يتفحصها ويقارنها مع غيرها ويحرص على التأكد من البيانات الشخصية المقدمة من مقابلة لأخرى.

– يمكن للباحث أن ينزل من الفضاء الافتراضي إلى الواقع، بمطالبة بعض المبحوثين إجراء المقابلة الواقعية إن أمكنه ذلك حتى يتأكد من أن مقابلاته أجريت مع الأشخاص المناسبين حقا.

4– لتجاوز إشكال التداخل الواضح بين أنماط المستخدمين الثلاثة المذكورة آنفا:

– يجب على الباحث في دراسات مستخدمي الوسائط الجديدة أن يكون واعيا أن المستخدم مرسل ومتلقي في الوقت ذاته وبالتالي عليه أن لا يضع تلك الحدود بين أنماط المستخدمين منذ البداية، بل يتعامل مع المستخدم على أنه مرسل(منتج) ومتلقى(معجب أومعلّق) أو ملاحظ فقط، ثم يعامله حسب وضعه في ذلك الموقف.

وانطلاقا مما سبق، يمكن القول بأنه يجب على الباحث الاثنوغرافي على الخط ليتجاوز الاشكاليات التي تفرض نفسها بقوة، أن يكون مُلما بعلوم أخرى غير علوم الاعلام والاتصال كعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الحاسوب وتقنياته حتى يتمكن من الرقي ببحثه إلى المستوى المطلوب، كما يجب عليه أن لا يتقيد كليا بنظريات الاتصال وفرضياتها وبالمناهج ومرتكزاتها ليدع لنفسه شيئا من الحرية في التعامل مع البيئة الاتصالية الجديدة والمجتمعات الافتراضية بما يخدم البحث العلمي.

وما يمكن قوله كخلاصة، أن الاختلاف العميق بين الدراسات الاثنوغرافية للمجتمعات في الواقع وتلك الدراسات الخاصة بالمجتمعات الافتراضية التي تشكلت في بيئة اتصالية تختلف تماما عن الواقع من حيث تعامل الباحث مع متغيراتها، حيث يجد أمامه بعض الإشكالات المنهجية التي تُضيّق عليه مجال بحثه وتضطره اضطرارا إلى تحديث رؤاه إلى كل الأدوات والمناهج والمقاربات التي تعتمدها دائما دراسات الاتصال الجماهيري عموما والدراسات الاثنوغرافية على وجه الخصوص.

ويمكن للباحث الاثنوغرافي على الخط إعادة النظر في المداخل والنظريات بتحديث فرضياتها والاستغناء عن بعض الفرضيات التي لا تتوافق مع دراسات مستخدمي الوسائط الجديدة، لأنه لا يمكننا النظر إلى النظرية بمعزل عن سياقها في الواقع وظروف ظهورها والدور التفسيري الذي لعبته في دراسة ظواهر اجتماعية وانسانية تختلف عن الظواهر الحالية، وكذا إعادة النظر في أنواع العينات وطرق المعاينة وعدم استخدام أدوات البحث المعروفة كتحليل المضمون بصورته الكلاسيكية وتطوير فئات التحليل بما يتناسب والبيئة الاتصالية الافتراضية.

ولابد للباحث أن يكون مبدعا في إيجاد البدائل المنهجية لتجاوز الإشكالات المطروحة ليقترب قدر المستطاع إلى الحصول على نتائج علمية دقيقة لأبحاثه. وعلى وجه خاص وجب الاهتمام بدراسة الجوانب الاجتماعية والثقافية في البيئة الاتصالية الجديدة لكونها أحد المجالات البحثية التي تفرض نفسها في الوقت الراهن، بسبب اندماج مجتمعاتنا في هذه البيئة الإلكترونية.

خلاصة عامة:

على ضوء ما توصلت إليه أبحاث الجمهور الحديثة تبقى المقاربة الاثنوغرافية أنسب مقاربة تمكن الباحثين من رصد مختلف التفاعلات والسلوكيات والتعاملات في الوضعية الطبيعية التي يجدونها في سياق المجتمع الواحد أو الأسرة الواحدة أو بين مختلف المجتمعات، إذ بفضلها يمكن الدخول إلى عوالم الأسر والمجتمعات عموما التي تتصف بسياق جد معقد، وذلك من خلال التركيز على مجمل تفاعلات الأفراد المبحوثين وعلاقتهم بوسائل الإعلام التقليدية والوسائط الجديدة واستعمالهم لها وأهم تأثيراتها عليهم .

قائمة المراجع:

1-إبراهيم مصطفى حماد. **مساق الاختبارات النفسية (عملي) اختبار رورشاخ الإسقاطي**، كلية التربية، قسم علم النفس، الجامعة الإسلامية، غزة، 2008.

2- أبو هلال أحمد. **مقدمة في الأنثروبولوجيا التربوية**، المطابع التعاونية، عمان، 1974.

3-أحمد مسلم عدنان. **محاضرات في الأنثروبولوجيا " علم الانسان"**، ط1، مكتبة العبيكان، الرياض، 2001.

4- أرمان ماتلار وميشال ماتلار. **تاريخ نظريات الاتصال**، ترجمة: نصر الدين العياضي والصادق رابح، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2005.

5- أمال عساسي. **إثنوغرافيا مستخدمي الفيس بوك في المجتمع الجزائري– دراسة اثنوغرافية لعينة من مشتركي المجموعات الأمازيغية بالفيس بوك**، 2015. رسالة ماجستير، قسم علوم الاعلام والاتصال وعلم المكتبات، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة باتنة 1.

6- أوجيه، مارك، جان بول، كولاين. **الأنثروبولوجيا**، ترجمة: جورج كتوره، سلسلة نصوص، دار الكتب الجديدة المتحدة، بيروت، 2008.

7-بلقاسم بن روان. **وسائل الإعلام والمجتمع (دراسة في الأبعاد الاجتماعية والمؤسساتية)**، دار الخلدونية، الجزائر، 2007 .

8- خليل أحمد خليل. **المفاهيم الأساسية لعلم الاجتماع**، دار الحداثة، مصر، 1984.

9- دنيس ماكويل، سفن ويندل، **نماذج الاتصال في الدراسات الإعلامية**، ترجمة: حمزة أحمد أمين بيت المال، ط1، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، 1997.

10- رادية شيخي ونور الدين دحمان . " **استخدام الشباب الجزائري للحرف اللاتيني في كتابة العربية عبر مواقع التواصل الاجتماعي دراسة إثنوغرافية**"، مجلة المعيار، مجلد 25، العدد 54، 2021.

11- رائد محمد طه. **اسهامات ابن خلدون في رفد علم الاجتماع والانثروبولوجيا مفاهيم لغوية**، ورقة بحثية مقدمة في مؤتمر "ابن خلدون علامة الشرق والغرب"، كلية الآداب، جامعة النجاح الوطنية، فلسطين، 2012.

12-رحاب مختار. **مناهج وتقنيات البحث الأنثروبولوجي في موضوع أسماء الأعلام، مجلة العلوم الاجتماعية**، العدد 19 ديسمبر 2014.

13-رزيقة حيزير. **اثنوغرافيا المشاهدة التلفزيونية مع الأقران في سياق الروضة دراسة ميدانية لعينة من أطفال ما قبل المدرسة بالجزائر العاصمة**[1] خلال ديسمبر 2017- ماي 2018، مجلة الاتصال والصحافة، المجلد 6، العدد 1، 2019

14–سعاد عالمي، **مفهوم الصورة عند ريجيس دوبري**، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2004.

15–سعيد بن كراد. **سيميائية الصورة الإشهارية، الاشهار والتمثلات الثقافية**، الدار البيضاء، إفريقيا الشرق، 2006.

16–سميرة بلغيثية. **استخدام المقاربة الإثنوغرافية في بحوث جمهور وسائل الإعلام** ، مجلة دراسات وأبحاث المجلة العربية في العلوم الانسانية والاجتماعية، مجلد 10، عدد 4، ديسمبر 2018.

17– شوقي العلوي. **رهانات الأنترنت**. المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2006.

18– عاطف وصفي. **الأنثروبولوجيا الاجتماعية**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 2004.

19– عاطف وصفي. **الأنثروبولوجيا الثقافية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1971.

20– عباس مصطفى صادق. **الإعلام الجديد المفاهيم والوسائل والتطبيقات**، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، 2008.

21– عبد الباسط محمد حسن. **أصول البحث الاجتماعي**، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، 1966.

22– عبد الله عبد الغني غانم. **طرق البحث الأنثروبولوجي**،ط1، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، 2004.

23– عبد الواحد الوافي. **الأسرة والمجتمع**، ط7، مطبعة النهضة المصرية ، مصر، 1977.

24– عبير الرحباوي. **الإعلام الرقمي (الإلكتروني)**. ط1، دار أسامة للنشر والتويع، عمان، 2012.

25– علي محمد رحومة. **علم الاجتماع الآلي**. ط1، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2008.

26–عمر عبد الجابر،**دراسات اجتماعية**، ط1، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، ، 2018.

27– فليب لابورث، تولرا جان، بيار فارنييه. **إثنولوجيا أنثروبولوجيا**. ترجمة: مصباح الصمد، ط1، مجد للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 2004.

28– لوكلرك جيرار. **الأنثروبولوجيا والاستعمار**، ترجمة: جورج كتوره، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1990.

29– لينتون رالف. **دراسة الانسان**، ترجمة: عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت، 1964.

30– ليوناردو دافينشي . **نظرية التصوير**، ترجمة وتقديم: عادل السيوي، الهيئة العامة المصرية للكتاب، مصر، 2005.

31– شاكر عبد الحميد. **عصر الصورة السلبيات والإيجابيات والآداب**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة، الكويت، 2005.

32-محمد الجوهري. **علم الفولكلور دراسة في الأنثروبولوجيا الثقافية**، مكتبة النصر للنشر والتوزيع، ط6، ج1، القاهرة، 2004.

33-محمد الجوهري، علياء شكري. **مقدمة في دراسة الانثروبولوجيا**، القاهرة، (د.د.ن)، 2007.

34- محمد حسن الغامري. **طريقة الدراسة الأنثروبولوجية الميدانية**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية.

35- محمد حسن. **الأسرة ومشكلاتها**، دار النهضة العربية، بيروت، 1981.

36- محمد رياض. **الانسان دراسة في النوع والحضارة**، دار النهضة العربية، القاهرة، 1974.

37-محمد عبد الحميد. **نظريات الإعلام واتجاهات التأثير**،ط3، عالم الكتب، القاهرة، 2004، ص 123

38- محمد عبد محجوب، **الأنثروبولوجيا التطبيقية"مقدمات نظرية وخبرات حقلية"**، دار المعرفة الجامعية، مصر، 2013.

39-محمد عبده محجوب. **اثنوغرافيا المجتمعات البدوية العربية**، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2008.

40- مصطفى سويف. **مقدمة لعلم النفس الاجتماعي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1970.

41- هالة منصور، **محاضرات في علم الأنثروبولوجيا**، الهيئة العامة لدار الكتب، 1998.

42-وردة قراينية. **أنماط تلقي البرامج التلفزيونية لدى الأسرة الجزائرية- دراسة إثنوغرافية**، رسالة ماجستير، كلية العلوم السياسية والإعلام، قسم [1] علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2008.

43-وليد رشاد زكي، **نظرية الشبكات الاجتماعية من الايديولوجيا الى الميتودولوجيا**، ط1، المركز العربي لابحاث الفضاء الالكتروني، مصر،2012.

44-وسام العثمان أحمد. **المدخل إلى الأنثروبولوجيا**، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2002، ص 118.

45-مقال بعنوان: الإثنولوجيا على الرابط https://ajialpress.com/2012/10 تاريخ الولوج: 2021/10/10 على الساعة 20:38

46-الملاحظة بالمشاركة في الأنثروبولوجيا على الرابط: [1]
https://www.aranthropos.com/%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%84%D8%A7%D8%AD%D8%B8%D8%A9 تم الولوج إليه بتاريخ 2021/10/17 على الساعة 19:20

47-فتيحة بوغازي. **اثنوغرافيا الانترنت**. مقال منشور على موقع: Http : www.audience-studies.over-blog.com تم تصفح الموقع بتاريخ: 2021/10/10 على الساعة 12:38

48–سميرة شوشان وآخرون. **علوم الاجتماع المرئية عرض لمسارها**، مجلة انسانيات، عدد مزدوج 81/80 ، سبتمبر 2018، ص 70 نقلا عن: Ferchiou.S. Rhétorique du regard l'anthropologie visuelle, Sciences sociales , Sciences Morales, ALIF, IRMC.1995.

49–David Morley and all. **Families technologies and consumption : The household and information and communication technologie**, the London School of Economics and Political Science, 2012 Families, technologies and consumption(lsero).pdf على الموقع

تاريخ الاطلاع 2021/10/15 على الساعة 18:00

50-Abderrahmane Ezzairi. **Approche ethnographique de la réception directe par satellite des télévisions transnationales en milieu familial marocain**, thèse doctorat, département de communication, Faculté des arts des sciences, Université de Montérial, Canada, 1998

51-Aslihan Akkaya. **Devotion and friendship through Facebook: An ethnographic Approach to language, community, and identity performances of young Turkish-American women",** Florida International University, January 2012.

52-Beatriz Lia .Avila .Mileham, " **On line infidelity in Internet chat room : An ethnographic exploration**" , Computer in Human Behavior, Volume 23, Issue1, January 2007

53-Chauchat.Hélene. **L'enquête en psycho- sociologie**, PUF, Paris, 1985, pp 92-93

54– Florence Weber, Stéphane Beaud, **Guide de l'enquête de terrain**, Edition la découverte, Paris, 1997.

55-Marie.EVE.Carignan, **La construction sociale de la réalité par les bulletins d'information télévisés en France et au Québec : le cas de TF1, France 2, Radio-Canada et TVA**, Maitrise avec mémoire (Maitre es arts), Université du Québec a trois Rivières, 2008.

56-Markus Schleicher and Eric Hirsch. **Ethnography and the crisis of context in studies of edia**, science and technology, S.A.G.E publication, London, 2001.

57-Winkin. H. **Anthropologie de la communication, de la theorie au terrain**, edition de Boek Universite, Paris, 2001

فهرس المحتويات

المحتويات	الصفحة
محتوى المادة	01
المحور الأول: مدخل عام للدراسات الأنثروبولوجية والاثنوغرافية	03
الأنثروبولوجيا (علم الإنسان)	03
الإثنولوجيا	14
الاثنوغرافيا	21
الإثنو–ميتودولوجيا	28
المحور الثاني: التوجه الاثنوغرافي في الدراسات الإعلامية	30
مفهوم البحث الاثنوغرافي	31
نواحي القصور في البحث الاثنوغرافي	34
المنهج الإثنوغرافي وخطواته	36
استخدام المنهج الاثنوغرافي لدى دافيد مورلي	40
المقترب الاثنوغرافي لدراسة الجمهور والمستخدمين	44
المحور الثالث: أدوات وتقنيات البحث الاثنوغرافي	46
الملاحظة بالمشاركة	47
المقابلة الإثنوغرافية	50
طريقة الاختبارات النفسية	52
طريقة تحليل الوثائق	54
الصورة الفوتوغرافية	59
استخدام التصوير السينمائي (الصور المتحركة) في البحث الاثنوغرافي	64
الطريقة الفونوغرافية	66
الطريقة الفيلولوجية	67
الطريقة السوسيولوجية	69
الطريقة الجينيالوجية	70
المحور الرابع: اثنوغرافيا الجمهور والمستخدمين (نماذج لدراسات اثنوغرافية لجمهور التلفزيون ومستخدمي الأنترنت)	71
اثنوغرافيا جمهور التلفزيون	71

اثنوغرافيا مستخدمي الأنترنت	74
المحور الخامس: الإثنوغرافيا على الخط وإشكالاتها المنهجية	99
البحث الاثنوغرافي الافتراضي	102
الإشكالات المنهجية التي تعترض الاثنوغرافيا الافتراضية	104
الحلول المقترحة لتجاوز الإشكالات المنهجية	106
خلاصة عامة	108
المراجع	109